AKAD for Translation, Publication and Distribution. United Kingdom

ريم بدر الدين بزال

وطن في حقيبة القلب

روايــة

أكد للنشر والتوزيع

الإهـــــــداء

لمن يعضدني في مشوار الحياة و يبقى دربي متسع الأمداء
لابراهيم ..
زوجي الغالي
للورود اليانعة في تربة العمر
محمود، سوسن، يحيى و يوسف
للتي تشرف علينا من عليائها تكلؤنا بحنانها
لجدتي خديجة رحمها الله
للوطن العظيم سورية باب الشمس ، مركز الأرض
محبتي و كلماتي

تقديم :

نحاول الرسم القريب لما بعد هذا الدثار الذي غطى معظم الأروقة الغافية عند وجود الآخرين في لحظة سريعة رسمت محيط الوطن عند حدود النهاية والبداية معا ، هكذا هو الغيب الذي لانعلم وتلك هي الساحات التي شردت محيط الكلمة في لغة رحلت بعيدا تحتسي لغة الشوق وتلتقي بكل خصائل الوجد إلى شرقنا الذي بعثر كل الأمنيات في لحظة ثم مالبث أن أمتلأ فينا بكل معاني الانتماء ، هو فيض ذاكرتنا ذاك الشوق المعتق فينا وذاك الحلم الذي عشنا كما الولادة والموت وكما الرحيل والرجوع وحقيبة القلب الملآى بهذا الوطن .

رواية هذا الوطن امتداد لملحمته التي عرفنا فيها السجود لاسمه الذي يتكاثر فينا حين نتقن أنواع الغربة وكل حلقات الدوران في المكان ، ماذا إن كانت لغة الصمت تجاور حقول الرغبة بالرجوع إلى حيث كانت الولادة والبداية الأولى لمجمع الضجيج الذي تفرد بإلقاء مسامعه علينا يوم كنا نحتسي الغربة في معالم لا حدود فيها إلا شغاف هذا القلب الذي ضج كثيرا ، يحلم بعودة سريعة لكل البدايات التي زرعها فينا هذا الوطن الغافي دائما عند جراحات أذاقتنا طعم الخيبة

يوما خارجه وعند دروب كثيرة من آلام لازالت تحاور إرادتنا في كل زاوية ومكان .

حقيبة القلب حبلى بمرات عبثت كثيرا بشرودنا وتناثرت هناك بعيدا خارج حدود الرغبة وخارج كل الكلمات ، حقيبة هذا القلب رسمتني بين جداول لا حضور فيها إلا لصفعات كادت تلامس كل محيط خرج حضوره بين فورة الحزن وبقايا لم تولد كما حضور الغربة التي امتشقت زهرة الميلاد على عجل وتراكمت مابين أضلعي تغازل شهيق ذاكرتي وحضور الألوان من كل محيط كان غائبا عني يوم وجدت الوطن في عينيّ تتقاذفه كل حدود الغربة وكل ميعاد ، من هنا كانت العودة تختزل تاريخ الكلمات وتختزل تلك الأنثى التي عرفت وكانت العودة مصير تلك الذاكرة التي أفقدتني كل ما مر بي وما اندثر ، كان الوطن يرسم ملامحه في حضن تلك الأنثى التي غسلت عذاب ذاكرة ملأت حقيبة هذا القلب وتكاثرت بكل ما هو آت ، بيدين من نور ونار رسمت تلك الأنثى كل محيط كان غائبا عني ورسمت الإنسان الذي ولد وعاش وفي خلجاته تثور براكين نارها وقود ذاكرة معذبة حين كان الهجر يغطي كل الساعات هناك حيث كان الشتاء ينثر برده على طاولتي الصغيرة وغرفتي التي قرأت خطوط جدرانها آلاف المرات ، في حضن تلك الأنثى تلاشت لحظات الخيبة التي تغلغلت كالسكين في خاصرتي وذاكرتي وتلاشت

معها عذابات هذا الهجر ومعنى الفراق الذي لاحقني مذ خطت قدماي حدود ميلادي هناك حيث لا الروح تعانق الروح ولا الإنسان يعانق ضميره وكل الأشياء التي عرفتها من صدر أمي وقهوتها الصباحية وصوت فيروز حتى لو كان بالحلم .

وطن في حقيبة القلب ولاتزال تلك الحقيبة مترعة بما تخبئ بين أحداقها من أقدار غرفت معين الحرف وارتدت تحمل في طياته تلك الرحلة الطويلة التي غادرتني في ثورة خاصة احتست وجود هذا اليوم وزفت معالم الوجد فراغ القافية من مسافات خجولة أنطقت صخرة الحزن إلى عبرات لطالما رافقت وحدتي وأنا أحمل الوطن في قلب أتعبته النهاية في بلد دون بداية تحتويه ، دون لحظات تحرك الصور الغائبة عن ميلادي وتراتيل كانت يوما ما مشبعة بجمال أمي وجمال الحدود التي ماعرفت ثمنا لها إلى أن حطت ذاكرتي رحالها بين جدران أربعة وطاولة صغيرة تحاول رغم كل الإرادة أن تبعد الحنين عن الذاكرة كما لوكان للظل قافية مخبئة بين عتمات ظلمة البحر هنا وصباحات الوجد في ساحات أمنيتي ، مامن عاشق يحتوي التراب إلا عشق الوطن في فورة الذات ومامن أصبوحة ترنو عبق مولدي إلاك ياأنثى الوطن ومامن نسمات تحمل ظاهري كما حملت يوما ما جمال الباطن في أعماق القصيدة إلاأنت يانسمات الوطن .

جهات الوطن تتكاثر في وحدتي وفي فنجان قهوتي وملايين الاحرف تتراكم خلف الحدود تعلن عن عبرات لطالما كانت بوحا يتغنى شفاه الحبيبة ولطالما كانت أقصوصة عرفتها جدتي قبل أن تتلوها لي بعبارات العالم الذي يلهمك كل الأشياء منذ تاريخ ميلادك ومنذ انطلاق القصيدة الأولى في عالم الحنين إلى الوطن ، لربما دفاتر الأيام اغرورق دمعها واستكان إليها كل عاشق حمل ذاكرته ورحل يبحث عن حياة أخرى لاتطالها أجهزة القمع المتبعة ، لربما كانت الأنظمة حينها خنجرا لكل شاعر حرك قلمه في غربة ذاتية مطلقة حين شعر أن في الوطن غربة كما خارج الوطن غربة أخرى ولاشك أنها الأصعب ، حينها نحاول عبثا أن نفتح للفجر عينين ربما اتقدتا ذات يوم بلقاء يلثم معاني الحبيبة في الغربة ويظللها بظله الذي غاب عن أمه وأبيه وأخوته واحترف مكانا آخر غير هذا المكان ولربما الزمان أيضا ،من هنا أطلت الابجدية بحروف يكسوها انهيار المعاني حين أشعر أن البوح بعيدا وأن العبرات لاتكفي لتبني وجودك في مكان غير مكانك ولاتفكي أن تعانق زهرة الميلاد وأمامك كل هذا الزحم وكل شعور بالشرود دون يقظة تجمع الآتي من خلف نهار ، لربما جدلية الغربة والوطن تفتح ذراعيها بكل المعاني خاصة إن كانت معانيها تحمل بعض طياتها إن سلبك وجودك بعض من كان في هذا

الوطن والأقسى حين تسلبك الغربة كل الحنين في لحظة كانت خارج قدرتك وخارج البوح بها إلى أي إنسان آخر .

(وطن في حقيبة القلب) قرأتها مرات ومرات ، هي أكثر من رواية هي ملحمة هذا الوطن الجميل الذي أعطته الأديبة ريم بدر الدين جمال الشعر والقافية وجمال الرسالة والنثر والسيرة الذاتية ، لغة ارتبطت بالقلب والعاطفة ، وصورت ذاك الوقع ومختلف العلاقات الانسانية ، هي حصاد ذاك الطريق الطويل الذي عرفته قبل أن تخوض به كاتبتنا ، معا لنعيش التجربة هنا ، نعيش الحلم والغربة للحظات نرى من خلال أديبتنا كيف تكسو الجمل بثوران الإنسان على الحلم ، ثوران اللحظة على الذات الهاربة دوما في أعماقنا ، كيف ترصد أديبتنا مشاعر الحنين في كل الأشياء ، وكيف تغادرنا بصورها إلى أن نعيش ذاكرة فيها كل معاني الغربة والانتماء الجميل إلى الوطن وكيف يكون الحب في هذا الوطن معالم لاحدود لها ولا مسافات .

الأديب السوري رامي وسوف

2012- 5 -2

هذا الصباح يبدو لي أكثر برودة من كل الصباحات التي مرت علي في هذه المدينة التي تستهلك أكبر قدر من البرودة التي يفرزها العالم .. تختزنها في جبالها و سهولها و سمائها طيلة فصلي الشتاء و الربيع و بعضاً من الصيف ... الغريب أنني منذ عشر سنوات أسكنها و لم أشهد خريفا واحداً ..الفصل الأحب إلى روحي..

بحثت بعيني في أرجاء الغرفة ...لم أجد " نينت" يبدو أنها قد ذهبت ..تركت ملابسها على السرير مبعثرة ...لا بد أنها ارتدت ملابسها على عجل و غادرت إلى عملها

" نينت " المثابرة تطيل السهر و تجعلني دوما أستيقظ معلقا على حافة الوقت بينما هي تستطيع أن تواصل دون نوم أو بقسط قليل منه ... أكاد أجزم أنها تغافل مديرها في العمل لتأخذ غفوة قصيرة بين

حين و آخر حتى يحين موعد عودتها و لكنها لا تعترف بهذا بل تضحك ملء قلبها و هي تقول :

-امرأة أسطورية أنا ... أليس كذلك يا حبيبي ؟

لا أجد لدي القدرة على العمل اليوم .. سأتصل بالشركة لأطلب إجازة مرضية فمنذ زمن طويل لم أطلب إجازة ، تزعجني الإجازات فأنا لا أعرف كيف أستمتع بوقتي في مدينة باردة كهذه ...من أجل هذا طلبت من " نينت " الانتقال إلى شقتي ...بوجودها يتسنى لي سماع صوت آخر غير صوتي و الصدى. و الحق يقال فهي صاخبة جدا و تحب الموسيقى و المرح و طوال فترة وجودها في البيت لا بد أن أسمع صوت شيء ما ينبعث من غرفة النوم أو من الحمام أو حتى من المطبخ تكسر شيئا ما ...حتى عندما تستحم تصدر ضوضاء كثيرة ..لكنني أحب فوضاها التي تحضر الحياة إلى هذا البيت.

عشت في بيت كبير تشغى فيه الحركة ليلا و نهارا و الضيوف لا يكادون ينقطعون زوارا و مقيمين و أمي كنحلة دائبة تسعى من غير كلل لخدمة البيت و الضيوف و تأمين كل الراحة المنشودة لنا.

كم أحتاجك يا أمي هذا الصباح! لحضنك و لكوب قهوتي في يديك العطوفتين .. إفطارك الذي لا يغادرني طعمه أبدا و الذي لا تتقن أنثى في الكون سواك إعداده ...أشتاق أن توقظيني بهمسك الدافئ

: جلال عليك أن تصحو .. ستتأخر عن مدرستك...و أنا أعابثك و أتخابث فلا أفتح عيني حتى أحظى بقبلتك على خدي، عندها أطوقك بلهفة لتقولي لي : أيها الشقي ...تشاغبني هه ؟ آه يا أمي كم أحتاج أن أكون مشاكسا بعد أن لازمني الشقاء طويلا.

يرن الهاتف ... إنها نينت توقظني.

حسنا أنا مستيقظ ...لن أذهب للعمل فأنا متعب و أحتاج للنوم.

نينت تملك بعضا من حنان هو ما تبقى من فطرتها الأنثوية التي قضت على معظمها الأيام و الظروف ...هي عربية الأصل لكنها خلال سنوات طويلة و حتى الآن لم تفصح لي عن هويتها ...تراوغني دوما بأن تتكلم لهجة هجينة من عدة لهجات كي لا أعرف لهجتها الأصلية ..

تعرفتها ذات ليلة تقف عند باب أحد المطاعم في قلب المدينة الباردة .. وقفت هي عند النافذة الكبيرة للمطعم من الخارج بينما كنت أجلس على الطاولة المقابلة لها تماما من الداخل ... وقفتها تلك تنتظر زبونا مناسبا و تمسك بيدها سيجارتها بطريقة من لا يبالي بأي شيء ، عينها المدربة تتفحص المارة لتعرض خدماتها على أحدهم لكن يبدو أنها لم تلتقط بعد ما يناسب طموحها ...انتبهت إلى أنني أراقبها فصار عثورها على الزبون تحدياً واضحاً في عينها

...كل حين كانت تلتفت و عينيها تقول بوقاحة و صلف غير معهودين عند هذه الفئة : لن أدع لك الفرصة لتشمت بي.
كانت تحمل الجمال العربي الذي لم يختفِ رغم المساحيق الكثيفة و العري الفاضح ...لم يكن أحد بحاجة خدماتها تلك الليلة و كادت أن تمضي كسيرة بعد أن رفعت لي راية استسلامها.
خرجت مسرعا لألحق بها فيما هي تتسكع على مهل من ليس لديه ما يفعله ... عرضت عليها أن تمشي سويا فأنا لا حاجة لي بخدماتها لكنني سأدفع ثمن الوقت الذي تقضيه معي.
كنت محتاجا فقط أن أحكي ..
- للكلام فقط أحتاج فتحدثي بالعربية إن أردت.
- أنت عربي هذا واضح من شكلك فكيف عرفت أني عربية؟ ؟
- لنقل أنها فراسة أو حدس.
- يبدو أنك تستطيع توظيفها جيدا.
- ليس الأمر كما يبدو لكنني لفرط الوحدة دربت روحي على استثمار كامل ما فيها من طاقات . بهذه القدرة أستطيع مشاركة الآخرين مشاعرهم حتى لو لم يسمحوا بهذا ... من هنا استطعت قراءة بصمات الألم و ذاكرة الفرح على وجوههم كما أعرف مقدار الكذب و الصدق في حيواتهم من مستوى تأنقهم .. لكن ما عليك مني ... أريد أن أسمع صوتا آخر ... حدثيني عنك.

- أنا كما ترى أسهر ليلي و أقضي نهاري نائمة في أي مكان أجد نفسي فيه ... لدي غرفة في ضاحية قريبة لكنني غالبا لا أستخدمها.

- هل أنت مرتاحة في هذا العمل ؟

- أعرف ما تقصده ... أنت ترى هذا العمل غير لائق و مهين و أنا كنت مثلك أراه هكذا في البداية لكنه يؤمن لي دخلا لم أستطع تأمينه من مصدر آخر..أنا أراه عملا و كفى...

استرسلت في حديثها في محاولة أن تضيف رشة سكر على بشاعة أيامها و عملها ...

كنت ألمح في عينها ألما تحاول أن تخفيه فتفضحه أضواء الشوارع التي كنا نمر بها

هل ستدعوني إلى بيتك ؟

ربما أدعوك ، لكن كما قلت لا حاجة لي بخدماتك.

إذن ماذا تحتاج ؟

أحتاج فقط إلى من يؤنسني.

رافقتني إلى شقتي غسلت وجهها من المساحيق فتنور وجهها بالجمال الحقيقي.

كانت سمرتها فاتنة و مغرية إلى حد كبير و سواد عينيها أضفى عليها سحرا إضافيا ، سرعان ما خلدت إلى النوم فيما كنت جالسا أمامها أتأمل في وجهها وهي مستغرقة في نومها.

عندما صحوت في الصباح ولأول مرة منذ سنوات وجدت فطوري معداً بالطريقة العربية الحنون التي تحمل كثيرا من دفء العائلة، لم أتناول منه إلا القدر اليسير فيما كنت مفتونا بالحالة ...ما أجمل أن ينقلك فطور معد على مائدة في أقصى الشمال إلى بيتك في الشرق حيث الوطن ، حيث الأم !

ارتدت ملابسها على عجل بعد أن أعطيتها ثمن الوقت ليومين و رجوتها بكل ما أستطيع أن تنسى اليوم عملها طالما هي حصلت على ثمنه.

-ابقي اليوم لوحدك من أجل نفسك ... أريد أن تعيدي اكتشاف ما في داخلك.

وعدتني أن تنفذ ما طلبته منها ... و غادرت.

وقفت أمام النافذة أنظر للشارع فأحسست به دافئا رغم الصقيع و لمحتها تخرج من البناء ..وقفت تنتظر الترام ...كانت تقف بطريقة متهتكة تغري أكثر الرجال وقارا بالتحرش بها .. اقترب منها رجل ثلاثيني ابتسمت له و ابتسم لها ثم بدأ يكلمها و يبدو أنها لا تلتزم بوعودها عادة ، تأبطت ذراعه و مضت!

كم أنا غبي ! هل تصورت أنني بغبائي هذا سأجعلها تقلع عن ما هي فيه ؟ و لكن لم أحزن فماذا قدمت لها أنا ؟ ثمن ليلتين ؟ و هل هذا يكفي ؟ علي أن أعترف أنها لو لم تكُ عربية ما ثارت في دمائي أية محاولة لمساعدتها ... و علي أن أعترف أيضا أنها امتهنت العهر حتى تساوت لديها الأشياء بخيرها و شرها.

أمضيت النهار كله أؤنب نفسي و في ذات الوقت أعتذر لها للإساءة البالغة التي ألحقتها بها.

عدت بعد هذا لأجتر أيامي كما هي ... أمضي صباحا إلى عملي و أعود في الخامسة مساءً لأقسر نفسي على النوم حتى يحين موعد عملي في اليوم الثاني ...

كانت لدي مجموعة من الأصدقاء لكنني كنت أحس بنفسي متطفلا بينهم عندما آتي لوحدي دون زوجة لذلك كنت أختصر لقاءهم إلى الحدود الدنيا.

كانوا خليطا من جنسيات عربية مختلفة و من أديان و مذاهب مختلفة لكنهم كانوا يشكلون نسيجا متماسكا . كان السؤال الذي يطرح نفسه دوما : هل نحتاج نحن العرب أن نحس أننا مهددون و على حافة الانهيار حتى نلتقي و نتفاهم ؟ ألا نستطيع أن نفعل هذا في أوطاننا ؟ في بلدي تعيث الطائفية و المذهبية فسادا و تقتات

على ما تبقى من فتاته و السلطة فيه تنمي أكثر و أكثر هذا لكي تضمن سيطرتها عليه و تسوقه كما بهيمة إلى مسلخها.

كان أصدقائي يحاولون دوما من خلال اجتماعاتهم الدورية التي يستدرجونني لها أن يقدموا لي فتيات مرشحات للزواج أو حتى للصداقة .. في بعض الأحيان كانت تبدو أساليبهم بدائية و ساذجة و مكشوفة إلى درجة أنني كنت أشتم رائحة الخطة قبل أن تبدأ و أحيانا كانوا يصوغون حبكتها بشكل متقن ليفاجئهم رفضي المطلق للموضوع.

كنت ما زلت متهيبا من التجربة الأولى عندما تزوجت لدى تخرجي من كلية الهندسة ، أجبرني والدي على الزواج لأنه أعتقد أن هذا وقاية لي و إكمال للشكل الاجتماعي كمهندس متفوق ، رفضت في بادئ الأمر لكنني انصعت لرغبته أخيرا و لكنني لم أستطع إكمال السنة الأولى من الزواج ، سئمت من تمثيل دور الزوج المثالي و المتفاني ، و بعد أن عذبتها معي في سبيل إرضائي و راحتي انفصلت عنها .

غادرت العراق بعد أشهر تقريبا في جنح الليل لا أحمل معي إلا شهادتي و شهادة التميز التي حصلت عليها من مديري و التي أصدرها تجاوزا ...كنت أظن أنني لم أترك ورائي سوى والدي ووالدتي و إخوتي الثلاثة ..و كنت قد عزمت على عدم العودة

للوطن مادمنا لا نأمن فيه على حرياتنا و حياتنا من زوار الفجر و السجون السرية و إحضار رأس أحدنا عند الصباح في كيس قمامة يلقى أمام باب دار ذويه مع تنبيه بدفنه سرا و دون جنازة أو مراسم عزاء!

مررت بعواصم عربية و رأيتنا نحتاج عصورا كي يتسنى لنا الحق بالحلم فقط و ليس التنفيذ ، كل سلطة كانت تدعي أنها تقدم الأفضل لشعبها و تحميه من مؤامرات خارجية تحاك ضده و كأن الدنيا كلها تركت ما في يديها لتفرغ لبلادنا تحيك لها مؤامرات ... كنا و ما نزال العيب فينا نحن و نريد أن نلقي ما بنا على شماعة غيرنا لكي نلتمس لنا العذر .

توقفت في ليبيا ،وذات صباح كنت على موعد مع الحب ، قابلتها ، فتاة بجمال غير مسبوق بوجه أبيض مستدير و ضحكة متميزة تنفرج عن أسنان منضودة بجمال لم أرَ له مثيلا ، كانت فلسطينية الجنسية ، فتنت بها جدا و نشأت بيننا علاقة حبية جميلة و صافية .

في غالب الأوقات كنا نتمشى أنا و منال على كورنيش البحر أو نطالع أخبار الوطن و نحن نجلس في المنتزهات و المقاهي العامة ، لا أدري إن كان هذا ما يسمونه حبا لكنني في حقيقة الأمر كنت أريد أن أقضي على برد الغربة الذي يجتاحني و الذي يملؤني بالنقص

و الحنين و الاشتياق و يعهد بي إلى بيتي دوما مترعا برغبة البكاء ثم النحيب .

أمضيت نصف عام أتمشى معها في الحدائق العامة و على الجسور و على شاطئ البحر ، كان والدها من الأثرياء الذين ولدوا في الشتات و و اتخذوا مقرا لهم في مدينة عربية يمارسون في أوقات فراغهم هواية البحث عن الحرية و كرامة الإنسان العربي كان رجلا مهيبا يملأ العين و السمع بشكله و صوته الجهوري و عندها عرفت لماذا يختارون أصحاب الأجسام الممتلئة للمراكز القيادية ..

يوم قررت التقدم لخطبة ابنته كان علي أن أمر بعدة بوابات كي أصل إلى مكتبه المدجج بالأسلحة و البنادق و المسدسات من كل طراز و المفروش بأناقة عالية التكلفة ... تساءلت فيما بيني و بين نفسي : يملك كل هذا السلاح و لم نحرر فلسطين بعد ؟

أتى بكل جبروته و غطرسته و انحشر في الكرسي ، و قبل أن انطق برغبتي في الزواج من منال أخبرني أنها ابنته الوحيدة و أنه قدم لها الغالي و النفيس من "عرق جبينه " و أنه لن يدعها في المنافي تتغرب و تنأى عنه..

كأنه نسي أنه يعيش في المنفى أيضا و أنه لا يمتلك من هذه الأرض شبرا ، لكنني تذكرت قول والدي : " المال لا جنسية له " و

الأشياء أيضا كل أراضي العالم أوطانهم ما داموا يمتلكون قدرة العيش و البقاء في أي مكان يرغبون فيه ..

كنت أعتقد أن تمسكها بي سيدوم طويلا لكنها سرعان ما خضعت لرغبة والدها و بدأت تبتعد عني رويدا رويدا و تقلص من رسائلها و مهاتفتها المختلسة حتى انقطعت نهائيا ... و في ذات الوقت دربت نفسي على نسيانها لأكتشف فيما بعد أنني تعلقت بها لأننا نشترك بهم الغربة و النزوح عن الوطن و أدركت أيضا أنها اتخذت لها وطنا حيث تنعم بالثراء و الدعة و الأمن.

عندها حزمت حقائبي و اتجهت إلى الخارج... في المطارات العالمية كانوا يستوقفونني كثيرا عندما يقرؤون جنسيتي على جواز السفر و أخضع لاستجوابات كثيرة و ملحة و غبية و كلها تعتقد أنني ربما أرسلت إلى أوروبا لأشتري المواد المحظورة الخاصة بإنشاء مفاعل نووي عراقي و خصوصا عندما يتأكدون من مهنتي كمهندس ، لكنهم عندما يكتشفون أنني تسللت من وطني ذات فجر يطلقون سراحي بعد أن أمضي أياما رهن التحقيق و الاحتجاز .. تساوت هذه المعاملة في المطارات العربية و الغربية على حد سواء لكن كي أكون منصفا فإن الأوروبيين عندما يحتجزون حرية إنسان يضعونه ضمن شروط بشرية و يشفعونها باعتذارات كبيرة عندما يكتشفون خطأهم.

في جزيرة صقلية أطلق سراحي بعد سلسلة تحقيقات طويلة اقتادتني من المطار مباشرة إلى مركز المباحث وعندما خرجت كان الصباح رضيعا في مهده ...تنسمت نسيم الحرية الغالي و بكيت كثيرا و أنا بعيد آلاف الكيلومترات عن بيتي .. كانت أمي في صغري تروي لي حكايات و أساطير عن بساط سحري عجيب و طاقية إخفاء تمنيت لو امتلكتها قليلا لألقي نفسي في حجر أمي و أتزود من حنانها و هي تهدهدني بالترنيمة الأمومية العراقية " دللول" .. كم أتوق إلى خبزها الصباحي الطازج و القيمر و المربى المعقود بيديها ... تسكعت في تلك الجزيرة الصغيرة و تذكرت التحذيرات التي وجهها لي المحققون بالتوقي من النشالين و تجار المخدرات المنتشرين بكثرة على أرض الجزيرة و الذين منحوها السمعة السيئة عالميا ... لكنني لم أعبأ بما قالوا.

أنا المسكون بحب المياه و الأنهار و الجسور الكثيرة المستلقية على طرفي دجلة و الفرات أحب كثيرا المشي على حافة الماء و لكن هنا حافة الماء بحر لا انتمي له.

كان هناك عجوزان يستلقيان على رمال الشاطئ و كان العجوز يتولى تدليك ساقي رفيقته بكل مودة و حنان ... ألحت على خاطري منال بشدة و قارنتها باستمرارية هذين العجوزين و قدرتها على التملص من وعدها بكل سهولة..

حطت رحالي في هذه المملكة الشمالية المتجمدة تقريبا .. كانت حلم الحرية و الاستقرار و الكرامة .سكانها باردون كما هي بلادهم و المساء يهبط فيها باكرا جدا حتى أن الشوارع و المطاعم و الأماكن العامة تفرغ من معظم مرتاديها بحلول الخامسة مساء و يمضي المساء و الليل بطيئا جدا ، مملا جدا و باردا.. البرودة أيضا في تعامل أهلها و قاطنيها و طراز أبنيتها ..

كانت المدة التي قضيتها وحيدا قبل أن أتعرف بنينت كافية لتملأني برغبة الموت فلم يمضِ ليل دون أن أعاقر الذاكرة و الطفولة الهاربة و الوطن الذي لا يحل المعادلة المعضلة حبيس في قلبي لكنه اعتقلني للأبد.

كنت أتابع أخباره عبر الشاشات و الإذاعات لأجد أنه يخرج من جب عميق ليقع في هاوية أعمق ...كان منظر الأطفال و النساء و الشيوخ يتجرعون القهر و الحرمان جراء الحصار و المرض الذي يفتك بأطفال العراق مما يدمي القلب.

الذين تسللوا من البلاد يعيشون في أوروبا و أمريكا تجمعهم البارات و نوادي القمار و على هامش سهراتهم يتذكرون أن لهم وطنا يقبع تحت الحصار ، يتاجرون به ليبرروا لأنفسهم الهرب من مسؤولياتهم و ليتخذوه بعد ذلك ذريعة ليزيدوا أرصدتهم في

البنوك السويسرية ... كانت تنقصهم القبعة السوداء الطويلة ليكشفوا عن انتمائهم الحقيقي..و كانوا يحاولون استدراج أي عراقي ليضموه إلى منظماتهم و مؤسساتهم التي تمولها لهم جهات قد تبدو مجهولة لكن بقليل من التفكير يستطيع المرء أن يعرف مصادرها الأصلية.

كانوا يدعون محبة الوطن و الشوق لأرضه و أنهاره و نخيله و سواده في كل لحظة و كأن الوطن يحتاج منا أن نكون في تنظيمات لكي يعرف أنا نحبه و نقوم بخدمته.

كانوا يجتمعون في مقهى خاص بهم بالرغم من يقينهم بأن السلطة قد أرسلت وراءهم المخبرين السريين و نشرتهم في عواصم المنافي لتتم مراقبتهم و تصفيتهم حال تطور وضعهم الثوري ليكون خطرا ، كانوا يسهرون حتى يأخذ بهم السكر مداه ليتناوبوا على شتم من يقودون الوطن بكل ما يستطيعون من ألفاظ بذيئة و مقذعة ثم يغادرون و هم يتأبطون ذراع العاهرات فقد أتموا مهماتهم تجاه الوطن سكرة و شتيمة ثم ليلة في حضن عاهرة شقراء ...

كنت أمضي إلى ذلك المقهى و أمضي فيه أحيانا وقتي لاأشاركهم ما هم فيه من متاجرة بالوطن و لكن لأسمع من يتحدث لغتي ، كي لا أقعد بين جدران شقتي الباردة و الخاوية و أخيلتها المرعبة التي تنشق عنها الجدران طيلة الليل.

هذه المملكة الشمالية فيها الكثير من قصص الجنيات و العفاريت و الأساطير الغريبة و لا بد أنها تستوطن حيطان أبنيتها و بيوتها و شقتي غير مستثناة من القاعدة ...كنت أخافها جدا و أدفن رأسي تحت اللحاف خوفا من أن تلتهمني العفاريت أو تقضي علي و أنا نائم مكشوف الرأس.

غير أنني في الليلة التي قضتها نينت في شقتي قضيت الليل مطمئنا كما لو كنت في بيت أمي هناك في العراق.

" نينت " تلك التي وعدتني أن توقف عن عملها المذل ليلة واحدة و لم تلتزم بوعدها ، استطاعت في ليلة واحدة أن تعيدني ثانية إلى مرافئ الشوق و الحنين كما اليوم الأول للشتات.

كنت أحن للوطن و لأمي و للمؤانسة الإنسانية فبت أحن لها ، استغربت في ذاتي كيف أحن لامرأة أعلم أنها تبيع مشاعرها لمن يدفع أكثر و تجدد هذا في كل ليلة ... لكنني مثلها أيضا أعرض حنيني يوميا على قارعة الذكرى أمام كل من يذكرني بوطني و أجدد هذا كل يوم و لا أرعوي.

في تلك الليلة الأشد برودة سمعت هسيسا خفيفا على الباب ، راودتني مخاوف كثيرة ، لا بد أنهم ترصدوني في مقهى المنفيين و علموا أنني أرافقهم حينا و أتوا لتصفيتي جسديا ، لكنني هنا صامت

لا أنبس ببنت شفة ، أشرب قهوتي و "استكانة" شاي و أستمع لقفشات السكارى ثم أعود لبيتي.
فكرت أن لا أفتح الباب لكن لو كانوا هم فسيدكونه دكا و يحطمون رأسي برصاصة لا تساوي نصف دولار
استجمعت شجاعتي و فتحت الباب فوجدتها ، كانت مستلقية عند الباب بملابس ممزقة و بعض الكدمات على وجهها، كانت ثملة أيضا !!
أدخلتها إلى الشقة و غسلت رأسها بالماء ثم أعطيتها بيجاما وطلبت منها أن تستلقي على الأريكة ، نامت بسرعة غريبة و الواضح أنها تعودت أن تنام في أي مكان حالما يتاح لها.
تركتها على الأريكة بعد أن دثرتها بالأغطية و انسحبت إلى غرفتي ، غريب هذا الشعور بالأمن عندما يتنفس معك شخص آخر في نفس المكان ، حتى لو كان أضعف منك و يحتاج إلى حمايتك ، لا أعلم من الذي يحمي الآخر .
في الصباح صافحت سمعي فيروز " فايق يا هوى لم كنا سوا " ...نهضت من فراشي ملسوعا ...يا ربي ! فيروز! هنا ؟ كيف ؟ بدأت أستجمع ذاكرتي لأعيد ملامح الليلة السابقة فأدركت أنني نمت عميقا كما لم أنم منذ شهور عديدة و أدركت أن " نينت " التي تمتهن العهر في عاصمة أوروبية ما زالت عربية الذوق و لو كان في بكور

الصباح لتنتزعه منها الحياة و متطلباتها كل النهار.. أو لعلها فيروز تلك الثقافة المشتركة لا يستقيم نهارنا إن لم يصافحنا صوتها .

وجدتها قد أعدت الفطور و جلست على استحياء لا يناسبها

أنا أعتذر لأنني أزعجتك الليلة الماضية و لكن كنت في حال يرثى لها و خفت أن أموت في غرفتي.

لا بأس عليك و لكن قولي لي ما الذي حصل ؟

ثري التقيته في فندق كبير و طلب مني أن أرافقه لكنه كان وحشا بكل ما تعنيه الكلمة !

هل عرف أنك عربية الأصل ؟

نعم عندما كلمته بالعربية زادت حدة تصرفاته و همجيتها و كأنه ينتقم بي من كل نساء العرب ، أتعرف : نعتني بالعاهرة و أوجعتني هذه الكلمة جدا ، أعرف أنني كذلك لكن أن تبصق الكلمة في وجهي مزعج جدا.

حسنا ارتاحي و ابقي ما شئت هنا و لن يزعجك شيء، فقط عِديني أن لا تعودي لهذا العمل ثانية وسأعثر لك على عمل محترم و بمواعيد محددة تعيشين معها حياة طبيعية ..

أشكرك لم يسبق أن عاملني رجل هكذا وهذا كفيل بإسعادي ما تبقى من عمري.

بقيت نينت ساءر اليوم في شقتي و تناولنا العشاء معا ثم طلبت أن تذهب إلى شقتها . أوصلتها و تمنيت لها ليلة سعيدة ثم غادرت.
عدت للبيت البارد ثانية لكن ثمة شيء من روح كانت هنا تركت أثرها في البيت فلم يعد موحشا كما كان من قبل.
طلبت من أصدقائي و معارفي أن يعثروا على عمل لامرأة لا تملك شهادات و لا مؤهلات و لا حتى خبرة و كان أن وظفت نينت في مقسم تحويل الهواتف الخاص بشركة سياحية ...يناسبها هذا العمل و هي التي تعاملت مع الناس طويلا لكن هذه المرة يكتشفون شخصيتها من خلال جانب آخر لا علاقة لجسدها به و إنما لدماثتها و لطفها و حسن تصرفها.
كانت تزورني يوميا بعد انتهاء العمل نتناول العشاء معا ثم أقلها إلى بيتها إلى أن أتى يوم عاصف و ممطر و انقطع التيار الكهربائي عن المدينة كلها.
-هل ستقلني للبيت ؟
-لست بحاجة إلى هذا بإمكانك أن تبيتي هنا فالعتمة مخيفة.
أيها الطفل الكبير تخاف من جنية تخرج لك من تحت السرير في العتمة؟
لم لا في داخل كل منا طفل كامن.
يبدو أنك تشتاق إلى أمك؟

نعم في ليلة كهذه تلح على قلبي صورة أمي.
إذا سأبقى هنا الليلة.
كان هناك اتفاق ضمني غير منطوق بيننا أن لا نسأل عن ماضي الآخر و لا خصوصياته وكانت نينت تحترم هذا كما ألتزم به بذات الوقت رغم أن طبعي المشرقي كان يلح عليَّ في بعض الأحيان لمعرفة ماضيها و كيف أتت إلى هنا و من هم أهلها وجميع ما يحيط بها من غموض ابتداء باسمها و انتهاء بلقائي الأول بها.
بعد ليلة العاصفة طلبت منها بشكل رسمي أن تبقى لتعيش معي فأنا لم أعد أحتمل الوحدة و الغربة وقابلتها بالموافقة فورا و كأنها على يقين أنني سأطلب منها هذا .
نينت التزمت بعملها بشكل رائع لكنها لم تستطع الامتناع عن شرب الكحول ... كنت أعود من عملي لأجدها ثملة تترنح و تصطدم بقطع الأثاث وغالبا ما آذت نفسها تحت وطأة السكر الشديد .. طلبت منها أن تخفف من الشراب لكنها أبت و قالت أن هذا خط أحمر بالنسبة لها فهي لا تستطيع العيش دونه.
بدأت أقنن لها الكميات التي تشربها في انتظار الإقلاع عنه و أبدت لي سعادتها باهتمامي بها ... كانت لا تبدو ثملة أمامي أبدا و ظننت أن محاولتي لمساعدتها قد نجحت ...لكنني عدت يوما و رأيتها مستلقية على أرض الصالة و هي تهذي ...عرفت أنها ثملة ...فتشت

المنزل بحثا عن زجاجات الشراب فلم أجدها لكنني اكتشفت أنها كانت تراوغني و تمزج الخمر في كوب القهوة ...هذا جواب السر الذي كان يلح عليّ في الفترة الماضية : ما سر غرامها بالقهوة في الآونة الأخيرة ؟

حملتها إلى السرير و تركتها هناك حتى الصباح و استيقظت لتعتذر لي بأنها لم تستطع إلحاح حاجة الشراب عليها فشربت كأساً أو كأسين ...

-أو ربما عشرة ؟

-لا أدري.

- من هو وليد ؟

ارتعش صوتها و ارتجفت شفتاها

-م ن وليد ؟

- أنا أسألك ...كنت تهذين باسمه البارحة.

- رغم اتفاقنا أن لا يسأل أحدنا الآخر عن ماضيه لكنني سأخبرك ...وليد هو ابني الذي لم أنجب غيره و لا تسألني عن شيء آخر.

-حسنا ...كما تشائين.

لم أتطرق لسؤالها مرة أخرى و لم تعد هي للشراب بالطريقة ذاتها و كأنها خافت أن يوصلها هذيانها لفضح أجزاء من تاريخ تجتهد قدر الإمكان لإخفاء معالمه عني.

كانت تستغرب مني عدم التحرش بها و هذا مستغرب بالنسبة لها في هذه البلاد و بهذه الظروف و هي التي اعتادت أن تبيع جسدها ...و في بعض الأحيان كان يعد هذا تحدياً صارخاً لأنوثتها ...كنت أعلم هذا يقينا لكنني ما كنت أشعر برغبة في الاقتراب منها فأنا لا أستطيع أن أتخيل علاقتي بامرأة علق تحت جلدها رائحة مئات الرجال و كانت من طرفها تحاول أن تستميل قلبي بإغراء أنثوي متقن و عطر صارخ ...كنت مستمتعا بالدفء الذي تشيعه في البيت و لا أريد شيئا سواه.

صحبتها مرات عديدة إلى سهراتي مع أصدقائي و عائلاتهم و كانت تحاول أن توقعني في شراك إقامة علاقة حميمة معها عبر الإيحاء للآخرين بأنني أعشقها إلى أن صارحتها يوما بأنني لا أريد شيئا سوى أن نبقى معا و أن عليها أن تقنع بهذا. كنت أعلم أنني أقسو عليها بهذا و أنه ليس مما تعودته و ربما تكون بحاجة لهذا الأمر لكنني في داخلي مملوء بالوطن و بحبيبة لا تشبه سواي في طباعها و جمالها و محبتها للوطن .

و يبدو أن نينت بدأت تستوعب الأمر فصرنا نتعامل كما لو كنا أصدقاء قدامى و نتشاور و نزور معا المعارض و الأسواق التجارية و نتمشى فوق الجسور أو في أحضان الطبيعة عندما يكون الطقس مناسبا ...

يا لله ! كم هذا الصباح متعب إذا أتاني بكل الذاكرة و دفعة واحدة ...كم هي مرهقة و متعبة ذاكرتي

هاهو الهاتف يرن مرة أخرى ولا بد أنها نينت أيضا ، أتاني صوتها ملهوفا : جلال هل تشاهد التلفزيون ؟!

بادرت فورا إلى التلفزيون لأوقظه من سباته ثم عدت للهاتف لأسألها : نينت ما الأمر ؟

شاهد الـ (سي ان ان) فهناك أخبار تتعلق بالعراق

أدرت المحطات لأعثر على قناة الـ (سي ان ان) ...كنت أعلم أن العراق قابع تحت الحصار وأنهم يهددونه بضربة جوية في القريب العاجل و لكنني كنت أعتقد أنها مناورات سياسية وبارشوتات اختبار لمدى قدرة العراق على الصمود لكن يبدو أنهم سينفذون وعدهم اليوم أو الليلة من يدري؟

لم أدرك بالضبط متى عادت نينت و كنت صامتا إلى درجة أرعبتها ، رفضت أن أتناول معها الطعام و رفضت أي اقتراح منها بالخروج من البيت لبرهة ... كنت أحس أن العراق على صفيح ساخن بعد أن أرهقوه حصارا و حرمانا و هو صامد في وجههم .. صحيح أنني خرجت متسللا جراء فقد الحريات لكن ليس عن طريقهم يحتاج المرء أن يعود لوطنه ...دوما هناك وسيلة أخرى منبثقة عن ذاتنا كشعب يتوق للحرية... القوة الخارجية الآتية على ظهر دبابة لا يهمها

أنا و لا أي منفيّ في الشتات ، يهمها هذا الوطن العظيم بكل خيراته و مقدراته ...

بت أحفظ رقم القرا ر 1441 أكثر من قدرتي على قراءة عقارب الساعة التي يبدو أنها قررت العد التنازلي لبدء المشهد الدامي ... و أتى الليل و العيون معلقة على الشاشات ...أي صلف و تحد و تكبُّر هذا الذي يدفع بالدول الكبرى إلى ترويع شعب آمن فقط ليقتل رجلا ...لطالما كرهت الحركات الإرهابية التي تقتل حافلة محملة بالأطفال بدعوى أن هناك كافرا بينهم و هاهي الدول الكبرى تشن على العراق هجومها بدعوى أن هناك طاغية يريدون رأسه ...ألم يعلموا أنهم قبل الوصول إليه سيجعلون الفقراء و سكان الأحياء العشوائية يدفعون الثمن؟

كانت ليلة مرعبة بكل معنى الكلمة و الانتظار يتولى إضرام حرائق الخوف و القلق ... اتصلت بوالدي في الوطن لكن يبدو أن الخطوط مقطوعة .. كنت أود أن أسمع صوت أحدهما فقط ليطمئن قلبي أو ربما لأنني لا أدري ما ستأتي به هذه الليلة من أحداث.

و بدأ القصف الجوي و تحركت القوات الأجنبية الآتية من الجوار .. يا لهذا الهوان يقتلوننا بسلاحنا !

تمطر القنابل بغداد بوابل لا مثيل له وبعد كل قصف ينجلي الليل عن أعداد هائلة من القتلى و الجرحى وجثث الأطفال المتناثرة تملأ الشوارع و البيوت الفقيرة التي دكتها الطائرات بقنابلها تنبئ عن أن هؤلاء قد أخفوا الأسلحة المحرمة دوليا فعلا و لكن في صميم جلودهم و في دمائهم المهدورة فهل يستطيعون اختراع فرق للبحث عن شحنات اليورانيوم المنضب في كريات دمهم ؟

" نينت " كانت تحاول أن تقدم لي العزاء و المواساة لكنني أيضا لمحتها تخفي دموعها كلما شاهدت جثث الأطفال العراقيين تذهب هباء و بلا ثمن إلا الحرية المزعومة و إزالة الطاغية .

و بالرغم من الطمأنينة التي تشيعها تمثيلية الظهور الاعلامي للمسؤولين يحيون رجال العراق الصامدين و ماجدات العراق و أننا بصدد القضاء على قوات الغزو الغاشمة لكنه لم يكن يملك المواثيق الكافية ليجعلني أصدقهم ، ثمة ما يدار في الخفاء و هذا واضح و ليست هذه الحركات إلا استعراضا متفقا عليه .

قرابة العشرين يوما مضت كنت لا أنام إلا جالسا أمام شاشة التلفزيون و في العمل أيضا أبقى متسمرا أمام شاشة العرض الكبير الموضوعة في مكاتب الشركة ... لكن في هذه الليلة هدني النوم .

كان مأتما غريب الطابع ، تمددت جدتي في تابوتها و حولها تناثرت قطع اللحم و الأرز ، كان منظرها مخيفا كتلك الجثث المستخرجة

من البيوت التي أصابها القصف . مرعبة تلك المرأة المتسولة التي اتشحت بالسواد و طلبت مني في بداية الصبح صدقة ، شرعت أجمع لها في وعاء من الأرز و اللحم المتناثر حول الجثة المشوهة لكن الوعاء لا يمتلئ أبدا ...ذكرني هذا بأساطير كنت قرأتها عن راهب أراد أن يقتطع من دمه رطلا يقدمه لطير باشق حماية ليمامة مسكينة و لكن الميزان لم يكن ليمتلئ من لحمه حتى هلك ...

أفقت مذعورا من نومي ،؟ كابوس مرعب حقا كاد أن يطبق على أنفاسي ووجدت نينت أمامي تضع لي الكمادات المثلجة على جبيني ... كانت الحادية عشرة صباحا ...رأسي يكاد ينفجر و لا أستطيع رفعه عن الوسادة كأنه مشدود بأغلال .

نينت أرجوك افتحي التلفزيون .

حبيبي أنت محموم دعك من هذه الأخبار ..لا جديد الحرب مستمرة .

فقط افتحيه و كفي عن الثرثرة ...ليس وطنك من يحترق.

رأيت في عينها دموعا لم أرَ مثلها من قبل في عينيها .. كنت قاسيا معها لكن الأقسى ما أراه على الشاشة ..

كان المنظر غريبا مجموعات من الرعاع تدخل بغداد بطريقة لم أرها في أكثر الأفلام هزلية و سخرية ..كانوا يمتلكون قوة التدمير و

التحطيم الجارفة و كانوا يدوسون الصور و التماثيل بحقد لا مثيل له ...

ساحة الفردوس نعم أعرفها هذه الساحة الأرقى في بغداد و هم يجتهدون لإزالة نصب للرئيس المخلوع ... ثم كموا فمه بالعلم الأمريكي هل هذه العراق ؟ رأسي لم يعد يتحمل كل هذا ...غبت عن الوعي مرة أخرى...

هرعت إلي نينت بلهفة كبيرة عندما فتحت عيني :

حمداً لله على سلامتك حبيبي ، راح الشر إن شاء الله.

رأيت حلما مزعجا يا نينت ... قولي لي : هزموا؟ نينت أعطني الهاتف.

لا تتصل بالعراق فالهواتف قطعت بسبب القصف الجوي و لم يبقَ من وسيلة اتصال.

أريد أن اطمئن على أمي و أبي و إخوتي .. أوجدي لي وسيلة أرجوك .

ما من وسيلة في الوقت الحالي.

نعم هناك وسيلة فقط ساعديني لأرتدي ملابسي.

خرجت متحاملا على نفسي تسندني " نينت" و اتجهت إلى مقر الصليب الأحمر الدولي ...أرجوكم أن تستعلموا عن أهلي في هذا العنوان في "بغداد "

بغداد الآن مدينة منكوبة عليك أن تنظر وقتا ليس قصيرا ..
لن أبارح هنا حتى تأتوني منهم بخبر.
حسنا بإمكانك أن ترتاح على هذه الأريكة .
ساعدتني نينت و جلست بجانبي ... أدركت في هذه اللحظة أنني أخطأت في تقدير هذا الشعب فهم على الرغم من برودة ردات أفعالهم إلا أنهم يحملون قدرا عاليا من الإنسانية ، كانوا يقتربون مني و عيونهم طافحة بالأسى و كأنهم يقدمون لي مراسم العزاء في العراق.
اكتشفت في هذه اللحظة أنهم يخافون أن يوصفوا بالمتطفلين لو اقتربوا من شخص حزين أو موجوع أو متألم ، ينتظرون فقط أن يطلب المساعدة ليقدموها عن طيب خاطر و بكل أناقة.
لم أدرِ كم من الوقت انقضى لكنني كنت أسمعهم يهاتفون فرق الإنقاذ ، كانوا يتحدثون عن صعوبات كبيرة يجدونها هناك وأن المنطقة منكوبة كما لو أن زلزالا بقوة تسعة على مقياس ريختر قد أصاب الأرض فقلب عاليها أسفلها ...كانوا يديرون العمليات من مكانهم هنا في الشمال ...أتى أحد الموظفين نحوي و هو يخبرني أن أهلي بخير لم يصبهم أي مكروه حتى الآن .
نسيت أن أشكرهم و اتكأت على نينت و عدنا إلى البيت.
تمضي الأيام لكنني بدأت أبلّ من مرضي مملوءا بشعور الهزيمة ... الذهول سيد أيامي و في قرارة نفسي أنتظر معجزة من أي نوع

تنتشلني مما أنا فيه ... لكنها لم تأت.. العراق قالب الحلوى الكبير جرى اقتسامه و لا عزاء لأبنائه و كان السؤال عن عبثية ما جرى يراودني دوما ليقض مضجعي ... هل كان يتوجب على سادة العراق الاستجابة للتهديدات دون إراقة دماء ؟ و لكن لو فعلوا هل كان الغزاة سيتورعون عن الذي أمعنوا فيه تمزيقا في جسد العراق ؟ لماذا عليه هذا الوطن العريق الكبير أن يدفع ثمن طمع سادته وطمع غزاته وطمع جيرانه وحقد الفاشلين والمتواطئين والمتسكعين والمتاجرين بدماء الشعب وعقوله ؟

كانت صرخة الرجل الذي فقد ابنه الطبيب المتفوق و الحاصل على درجة الدكتوراه منذ شهر مضى لا تني تقض مضجعي : ابني أحمد دكتوراه في علم الأورام محاضر في كبريات الجامعات العالمية ، استشهد بانهيار سقف غرفته التي كان يعدها للزواج و....و... و الحمد لله رب العالمين.

قالها و الغصة تملأ قلبه أكاد أحس بها ...آه يا أمي لم كلما احتجتك تكونين في غيابة البعد؟

بدأت أستجمع بعضا من قواي الخائرة.. كرهت جدران شقتي و الأخبار الآتية من محطات أدمنت البحث عن الخراب لكي تنال بها سبقا صحفيا ...كالضباع أو الذئاب تشتم رائحة الدم لتكون أول من يحظى بالقضمة الأولى ...عاد شبح الوحدة ليطاردني خصوصا أن :

نينت " عادت لعملها و لكنها صارت تطيل الغياب و في كل مرة تترك لي رسالة على المجيب الآلي تقول أنها ستزور صديقة لها في العمل أو لتتسوق بعض الحاجيات .. لا يعنيني شيء سوى أنها تعود في نهاية اليوم لتنام في البيت و تزرع فيه بعضا من صخب ..

عدت أنا أيضا لعملي و أغرقت نفسي فيه حتى النخاع ...كان الموظفون يستغربون نشاطي و قدرتي على مواصلة ساعات العمل بهذا الجد و الإنتاج المتميز و في الحقيقة كنت أهرب من مطاردة شبح الذاكرة و المحطات الإخبارية و غياب نينت الطويل.

لست أدري إن كنت بدأت أتعلق بها لكنها كانت تشكل لي هامش الأمان الذي أحتاجه خوفا من انهيار أعصاب مفاجئ أو موت حتى التعفن وحيدا في شقتي.

استيقظت صباحا على صوتها و هي تتقيأ ...انتظرتها حتى خرجت من الحمام .. قالت لي أنها أفرطت في الطعام مساء البارحة و يبدو أنها هناك خللا معويا ضايقها .. قدمت لها كوبا من الأعشاب الساخنة و طلبت منها أن تدفئ نفسها و ذهبت للعمل واعدا إياها بالاطمئنان عليها بالهاتف كلما تسنى لي وقت .

لمحت في محجريها دموعا .. و عندما حدقت فيها أشاحت بوجهها .

عدت في المساء لأجدها ما تزال على جلستها التي تركتها عليها ، قالت أنها تشعر بتعب عام في كل جسمها ..و أصرت برفض مستغرب على عدم إحضار الطبيب.

جلال يمكنني أن أحدثك بموضوع مع أنني أعرف أن هذا ليس وقته ؟

ممكن طبعا ، تفضلي.

يمكنك أن تتناول العشاء قبلا فأنت متعب.

حسنا .

تناولت العشاء و معه الهواجس التي زرعتها في داخلي طريقتها المستأذنة ، عدت لها بفضول :

ما الأمر يا عزيزتي ؟

باختصار ...أنا حامل.

ماذا ؟!!

أنا حامل و لا أريد أن أخدعك أكثر من هذا و من الغد سأبحث عن شقة لي.

هذا مما لاشك فيه و لكن هل لي أن أعرف ما الذي حصل و متى ؟

حسنا أنت لم تقدم لي شيئا سوى الإيواء و المساكنة أما أنوثتي فكانت على سطح من جليد .

هذا صحيح و هذا كان اتفاقنا منذ البداية .
التزمت بعدها الصمت لأنني في ذات اللحظة تذكرت أنني لم أكن منصفا فلمَ أطالبها الآن بما لا تقدر عليه؟
-يمكنك أن تبقي لأيام أخرى ريثما تعثرين على مكان مناسب .
ارتديت معطفي و خرجت إلى الشارع رغم البرودة القارسة و الحرارة التي تتدني بعشرات الدرجات تحت الصفر.
قصدت مقهى العراقيين ... للمرة الأولى مذ سكنت نينت معي ...وجدته خاويا و لا يوجد به إلا النادل و بعض المرتادين القدامى
-شي غريب ... ليش ماكو أحد هنا ؟
- ما هذا السؤال ؟ عندك علم ان المعارضة سافروا للعراق يشاركون في الحكم؟
نسيت أنهم راكبوا سلالم و أنهم امتطوا ظهر الدبابة الأمريكية ليجدوا لأنفسهم موطئ سكين في جسد كعكة الوطن الكبيرة .
" يا دنيا أنتي حرمتيني من أهلي ...قصدت الغرب من غصبن عليا" ..كلما سمعت الابوذية الشهيرة ازدادت دموعي حرارة ... كم هو الشعور بأنك مغرر بك أو مخدوع أمر لا يطاق و هاهي نينت باعتني كما باع المعارضون الوطن .
أيام مضت حزمت فيها نينت حقائبها و غادرت و أنا في العمل لم تترك لي أي عنوان أو رقم هاتف و إنما ألصقت لي على باب

الثلاجة جملة قصيرة طويلة بخط يدها : رغم كل شيء .. أحبك!

هل كانت الكلمة تدور في لهاتها كثيرا و تخاف أن تنطقها بحضوري؟ هل كنت مخيفا بالنسبة لها كي لا تفصح عن شعورها إلا في اللحظة التي تيقنت فيها أننا لن نلتقي ؟ لقد مضت و انتهى الأمر و علي أن أتعود الوحشة و الفراغ من بعدها.

هذه المرة بكيت كثيرا ...

الهاتف يرن و بإلحاح شديد ، اختفطت السماعة ..كانت أمي .

- يما اشتقتك حييل

-" اني هم وليدي ، ليش ما ترجع؟ اكو ناس اهوايه رجعت وانت هم هسه تكدر ترجع."

- "يمه الوضع كله مو زين ، شيرجعني ؟ وشنو اكدر اشتغل حتى اكدر اسد مصاريف البيت ؟"

-" وليدي اترجاك ترجع ، حتى اشبع شوف منك قبل ما أموت."

ملأني حديث أمي بشعورين متناقضين ، الحزن و الحسرة و الأمل في آن معا.

لأول مرة أدرك كم هو مؤلم لو رحل أبواي عن العالم دون أن أحظى بضمة دافئة في أحضانهما .

تولد لدي أمل غريب أيضا بأنني سأعود للوطن قريبا لأرى أهلي و أشم رائحة حضن أمي و أقبل كفي أبي.

في هذه الأيام اشتد تعلقي بأصدقائي ، بت لا أفوت على نفسي سهرة واحدة من سهراتهم يرافقني عودي الذي كدت أكون نسيته في غمرة همي ووحدتي ..كان أصدقائي يقولون أنهم يتنسمون من الألحان التي أعزفها رائحة دجلة و الفرات..عبير العراق.

في تلك السهرات كانوا يتجنبون الحديث عن وجع الوطن و عن الخراب الذي حل به ، أعرف أنهم يحاولون مواساتي لكنني لا أعبأ بهذا فأنا أعرف أن كل شيء قد ضاع ومحاولة الخروج من النفق المظلم تحتاج إلى عقود عديدة .

صار العمل متعبا جدا بالنسبة لي و كلما أحسست أني بعيد آلاف الكيلومترات عن بلادي المنكوبة و لا أدري في أية ساعة سيدمر بيت العائلة بقذيفة أو متى سيداهمه الجنود ليعتقلوا إخوتي و أبناءهم ، بت أحس أنني يتوجب علي المغادرة في أسرع وقت ممكن لكنني كنت في لحظات أخرى أعنف نفسي على هذه المشاعر الساذجة فماذا يمكن أن يفعل من هو مثلي لوطن منهوب إلا زيادة العبء عليه؟ هذا الوطن بدأ يلفظنا بلا هوادة و كأننا لم ننبت من ترابه إلى دول الطوق ...أنشأت لهم مخيمات إيواء تفتقر إلى

أبسط الشروط الإنسانية بدعم من الغزاة ، ما أرحمهم ! حتى في الأذى و التخريب يتقنون عملهم !

كان دجلة الدامي ينزف كرامة العراقيين كلها و يرميها في كل طلعة نهار على جسوره الواصلة بين الكرخ والرصافة و كانت المحطات التلفزيونية لا تدرك الحقيقة كاملة وتتحجج بأن الغزاة قد سيطروا على منافذ الخبر كاملا لكنهم لم يتورعوا لحظة عن إهانة الشعب العراقي بنشر صور ما جرى في المعتقلات و السجون التي أمعنوا فيها إهانة كرامة الإنسان .

يقولون أنهم يسعون وراء الخبر و الحقيقة لكنهم لا يعلمون كم أهينت مشاعر العراقيين وطعنت في صميمها عندما رأوا ما حدث في المعتقلات لأبنائهم و آبائهم و إخوتهم و جيرانهم و أشخاص مروا بهم في الشارع أو حتى لم يمروا بهم لكن يكفي أن عروقهم فيها دماء من الوطن.

بعد ليلة مسهدة لا تختلف عن باقي الليالي التي أمضيتها ، مضيت إلى العمل باكرا جدا ، وصلت قبل أن يكون هناك سوى عمال التنظيف و الترتيب ، كانت المكاتب خاوية و أجهزة الكمبيوتر كلها صامتة و ليس ثمة إلا تلفاز وحيد أديرت محطته على محطة إخبارية تتاجر بآلام الشعوب لتصيرها خبرا أولا و سبقا صحفيا ...

اقترب مني عامل التنظيفات بطريقة غريبة ، كنت منذ سنوات كثيرة أعرفه لكنني لم أحاول أن أكلمه مرة واحدة .. حدثني بلهجة عربية لكنتها مغربية أو ربما جزائرية : يا بني ارجع للعراق و لا تتركه للمرتزقة ...

- ماذا ؟

- يا بني أنا رجل بسيط لم أنل قدرا من العلم و الثقافة ،لكن محبة الوطن لا تحتاج إلى علم ، يا بني الضباع راحوا إلى الوطن كي ينالوا مناصبَ و يكدسون أموالهم ، لا يعنيهم البلد و خلاصه ، إذا بقيت أنت وأمثالك هنا من سيعمر الوطن؟

يا عم أنت ترى الموت يترصد وراء كل باب ، بل وراء كل خطوة ، الموت يعشش في رئات الناس و أدمغتهم ينتظرونه مع الشهيق القادم .

الموت من ورائك و من خلفك ، فوقك و تحتك ، أنت مُعَرَّضٌ للموت في كل اتجاه حتى لو كنت في فراشك في أكثر الدول رفاهية ...هو الضيف الوحيد الذي لا تستطيع الامتناع عن استقباله إذا حان دورك.

صحيح كلامك.

إذا فلتكن بين أهلك و في بلدك خير لك من الموت غريبا لتحظى من الوطن بتابوت عليه علم يرتحل بين المطارات.

كان كلامه منطقيا و صحيحا و يحمل الكثير من دفء والدي
كما ترى يا بني أنا لا أطمع في نيل مركزك فأنت مهندس مشرف و أنا عامل تنظيف و البون واسع جدا ... أنا رفضني الوطن منذ سنوات كثيرة جدا و مات ابني الوحيد في معتقلات السلطة التي رسمنا لها طريق التحرير و عبدناها لها ثم لفظتنا كما يلفظ البحر كائناته الغريبة بكثير من التقزز كما لو أننا قاذورات.
انتبهت من استغراقي في التفكير إلى أن الرجل مضى و بدأت المكاتب تشغى بالحركة و الضوضاء التي يصدرها الموظفون .
-هه جلال ما بك اليوم مبكرا على غير العادة؟
- يبدو أنه لم يحظَ بحسناء ليلة البارحة .
يمازحونني كما هي عادتهم و يحاولون أن يلمزوا إلى تأخري الدائم عندما كانت نينت تساكنني .
هم لا يعلمون عني إلا النذر القليل ويحاولون أن يسبروا غور عالمي لكنني كنت أضع دوما حدودا للعلاقة بيني و بينهم و لا أسمح لأحد بأن يقتحم حياتي ... لا أحب هذه الطريقة من العيش عندما يكون كل شيء من خصوصيات المرء معروضا على طاولة نقاشا لأصدقاء حتى لو كانت نياتهم سليمة و صافية.
كنت أعرف أنهم يتكلمون بلغة غير منطوقة تسمى بين زملاء العمل لغة المكاتب ، يستطيعون قراءة الوجوه و الحركات و أي تعبير

يرتسم على وجهك ثم يتبادلون فيما بينهم أيضا تعبيرات أخرى مستنكرة أو مستهزئة و كل هذا يري بدون كلام و كنت في بعض الأحيان أشاركهم هذه اللغة حينما يكون الحديث عن شخص آخر غيري ، لكننا دوما ننسى أننا نضع أنفسنا من الآخرين حيث وضعنا الآخرين بالنسبة لنا .

منتصف النهار أتى وئيدا ، كنت قد شربت عدة أكواب من القهوة ، و كان بريدي الإلكتروني مكتظا بالرسائل التي عليَّ أن أفرزها و أبوبها بعد القراءة ثم الرد عليها ، وجدت رسالة كنت قد سهوت عنها منذ يومين و مؤشرة بعبارة (هام جدا).

كان العنوان غير معروف بالنسبة لي لكنني فتحتها.

أمك تحتضر الرجاء كلمنا حالما يتاح لك .. أخوك جبار.

يا للهول !! أمي ؟ ؟

تناولت الهاتف بيد مرتعشة لأطلب الرقم ...الرقم المطلوب لا يمكن الوصول إليه كم هي هذه الجملة ممعنة في مساندة غباء اللحظة ... كيف أعرف ، كيف أسكت هواجسي ، كيف أطمئن شعور الفقد الذي بدأ يجتاحني بكل قسوة و الطرق مقطوعة و الرقم المطلوب لا يمكن الوصول إليه ...بدت لي الاتجاهات معكوسة و كأنني على مفترق طرق و المؤشر الوحيد تعبث به الرياح .

حاولت مرة و مرة و مرات و أخيرا رنَّ الهاتف ، بلغت بي الرجفة مداها ... و أنا في انتظار أن يرفع أحدهم سماعة الهاتف من الطرف الآخر ... سمعت صوت البكاء قبل أن يبادر و يرد :

-توفيت أمك يا جلال .. آخر اسم نطقته هو اسمك .

كان صوت والدي مختنقا بالدمع ،

راحت الحبيبة يا جلال ، راحت أمك.

أسقط في يدي ، شعرت بالدوار و تهاويت على كرسيي و كأنني خارج للتو من دوامة أو موشك على الإبحار فيها .

لكأن قدر كربلاء ملازم لنا ، لكأن الحسين ما قتل في الطف فقط و إنما يقتل فينا كل نهار.

من كانوا يمازحونني صباحا هرعوا إلي ، تلقفوني بكثير من المحبة وقدموا لي التعازي ...

كأن خبر رحيلها عن هذا العالم استدعى على عجالة شريطا مصورا من الأحداث إلى ذاكرتي ، منذ الطفولة في بيتنا الكبير هناك في بغداد ...

كنت أعود من الحديقة معفرا بالتراب و أحيانا ملطخا بالطين جراء لعبي اللامقدر لقيمة أن تتلف يدا أمي في مساحيق التنظيف الحارقة ، كانت تنظر إلي بنظرة لوم و عتب و ربما تؤنبني ثم تغسلني و تقدم

لي ملابسا نظيفة ...كنت أعانقها بشدة لأعتذر لها فأسمع ضربات قلبها المحبة و بشدة لهذا الذي أنجبته و يشاغبها .

كانت أمي لا تعرف القراءة و لا الكتابة لكنها علمتني ...كانت تجلس بقربي و تقول لي هات كتابك و اقرأ لي ما حفظته كانت تعي أن كل جزء صغير ينفصل عن الآخر هو كلمة و عندما أقف تعرف أنني أخطأت.

لم أعِ أنها لا تقرأ إلا في عمر متأخر ، كذبتها أو خدعتها تلك وسعت مكانها في لقبي ليتجاوزه إلى كل كياني .

كبرت و أنا أضع رأسي على فخذها و هي تناغيني " دللول" تلك الترنيمة الشهيرة و التي لا يتقن أحد غناءها كما أمي .

دللول الفراق يهد ترى الحيل
ما يسوى العمر يخلص تواسي
اون عليك واشكي همومي لليل
ترد لي يا الولد ها يمة شتقول
دللول يا الولد يا ابني دللول

حتى عندما سافرت كنت أحملها في داخلي و كنت كلما فكرت بالعراق تذكرت أمي و كلما قلت أمي عنيت العراق ، هي و الوطن كينونة واحدة لا تنفصل عنه.

عدت إلى الشقة و أنا لا اصدق أن هذا العالم قد خلا منها ، كيف لن أسمع صوتها مرة أخرى و لَم أعود للوطن و قد مات الوطن ...في تلك اللحظة أدركت مدى خسارتي ...أدركت ما يعنيه الاحتلال بحق .

بعد قليل قدمت إلي مجموعة من الأصدقاء ، أداروا شريط التسجيل و كان بصوت مقرىء يتلو آيات من القرآن ..

دموعي التي انحبست و ذهولي الذي ارتسم على وجهي في لحظة واحدة تحول إلى بكاء صامت ثم نشيج ، كم للكلمة الربانية من تأثير على الروح يطهرها ويغسلها من أدرانها ... صحيح أنني أك يوما ملتزما دينيا ، و المرات التي أديت فيها صلواتي كانت قليلة جدا لكن صورة والدي وهو يعود من صلاة الفجر و يجلس عند حافة سريري و يقرأ آيات من القرآن من تلك الصور النورانية التي لا تمحى في حياتي.

أصر أصدقائي على إقامة صلاة الغائب على روح أمي الراحلة و لأول مرة في صف واحد اجتمعت كل الطوائف الإسلامية في صلاة واحدة و بعضهم رسم علامة الصليب و باركوا روحها المرتحلة إلى ملكوت الرب.

كأنهم ضمنيا دون إعلان شفهي قد اتفقوا على أننا جميعا ندين لرب واحد لا شريك له.

كان حضورهم مفيدا حقا و لولا هذا لانهرت في شقتي الباردة و هذا كان متوقعا من أصدقاء احتضنوني منذ قدمت إلى هنا بكل المحبة لكن ما لم أتوقعه هو أن تأتي نينت لتعزيتي ، كان بطنها منتفخا ووجهها شاحباً و مليئاً بالكلف و قد خلا من مساحيقه التي اعتادت أن تضعها و بإسراف شديد ، لكأنها ليست تلك التي أعرفها هادئة رزينة وقورة و ترتدي ثوبا أسودَ فضفاضا ، وقفت عند الباب مترددة لكنني أومات لها أن لا تخشي شيئا ، أتت إلي و قبلتني على جبيني ، كانت في دموعها خير عزاء لي فأنا أعرف ما يكنه لي قلب نينت من صادق المحبة رغم نكثها للوعد الذي بيننا . بقيت بجانبي لفترة طويلة ، كنت لا أقدر على الكلام و لا حتى بكلمة مجاملة فما زال صوت والدي يرن في أذني : راحت الحبيبة يا جلال ، راحت أمك .

والدي .. كيف نسيت والدي ؟ و انا أعرف أن رباط الحب الذي يجمع بينهما لا يمحوه الموت بل ربما يزيد عقدته تماسكا، كنت أحس أنهما أحيانا يتكلمان لغة غير منطوقة لا يفهمها سواهما لكنها تبدو واضحة في تلامس أصابعهما إذا تجاورا في المجلس ، في النظرات المحبة التي يرسلها أحدهما للآخر إذا تباعدا ، في ذكر أحدهما للآخر إذا غاب عنه ، كان والدي يتحدث عنها بكل إعجاب و رغم تقدمها في العمر أعلن دوما أنها امرأة لا تتكرر .

كنت أعدها ظاهرة غريبة و متميزة لكن والدي أخبرني يوما عن قوم يدعون المعدان إذا أحبوا و عشقوا تماهوا في ذوات معشوقيهم حتى الجنون أو الموت و كان يقول لي : أنا معداني الهوى فلا تستغرب كم أحبها أم جبار.

لم يقل عنها أمام الناس إلا السيدة أو بكنيتها أم جبار و كان الرجال يلومونه و يعتبرونه ضعيف الشخصية لكنه لا يعبأ بهم فما يعنيه في الحياة هو هذه الوفية المحبة الجميلة دوما رغم كل صروف الدهر و الزمان.

و الآن و قد رحلت كيف سيمضي أيامه من غيرها ؟ كيف سيكون شكل حياته من بعدها ؟

هم آخر أضيف إلى جملة همومي التي ما تفتأ تتراكم و تزيد

أحقا ماتت ؟ بات هذا السؤال الذي حل مكان السؤال الذي لما يبرد بعد : أحقا سقطت بغداد؟ لا لن أعترف بموتها لأنه لا يكون طالما بغداد لا يمكن أن تسقط ، هي في إغفاءة قصيرة أو طويلة لكنها ما زالت هنا ، تحوم حولنا و تكلؤنا بعينها الحانية ، هي اليوم طليقة أكثر و ربما تزورني في منفاي هذا تهمس بأذني صباحا : (جلال اقعد تأخرت على شغلك يما ...) و أعابثها بكل شغبي الذي اختزنته من الطفولة بعين مغمضة و أخرى نصف مفتوحة لأحظى بضمتها الهادئة و قبلتها الحنون .

عندما فتحت عيني في الصباح التالي كنت لوهلة ما قد نسيت كل شيء عن اليوم السابق لكنني وجدت أن نينت أتت و تحمل في يدها صينية القهوة ...

ما الذي أتى بنينت إلى هنا؟ أليست قد تركت البيت و لم هذا الانتفاخ في بطنها ... عندها بدأت استعيد شريط البارحة منذ الصباح و حتى الخبر المشؤوم.

أحقا ... أتى نهار آخر و الشمس لم تشرق عليها أمي؟

نينت قدمت لي القهوة بعين منكسرة دامعة .

-كيف حالك يا عزيزتي ؟ كنت أنظر لها محاولا أن أتجاهل حملها الظاهر .

- تركت عملي في الاستقبال و انتقلت إلى شركة تجارية لأعمل فيها عملا مشابها موظفة استقبال و استأجرت بيتا في الشارع الخلفي لشقتك .. و أنا انتظر أن أضع مولودي خلال شهرين من الآن.

- هل يعقل أنك تسكنين بالقرب و لم نتقابل يوما ؟

- و هل تعتقد أنني كنت سأسكن بعيدا عنك ...كنت أطمئن في كل حين عنك دون أن تعلم و البارحة مررت بالقرب من شقتك فلمحت من خلال الزجاج حضورا كثيرا فعرفت أن ثمة خطباً ما .

-هل أنت سعيدة ؟

- ربما نسبيا نعم، الأمومة شعور جميل و لطيف حتى لو أتى عن طريق اغتصاب.

- إذا هو عن طريق اغتصاب ؟

- لنؤجل الحديث في هذا الموضوع ، ما رأيك أن نتناول الإفطار ثم أمضي إلى عملي ؟

عاطفة نينت الأمومية زادها الحمل و صقلها و ملأها رقة و هدوءا و سكينة انعكست على وجهها .

سلمت قيادي لها ,وقبل أن تذهب إلى عملها تركت لي رقم هاتفها ووعدت أن تزورني في المساء .

بت أحس أن زيارتها تأتي لي على استحياء و أنها تتحاشى أن تنظر في عيني و تحس بارتباك شديد إذا ما لاحت مني التفاتة نحو بطنها المنتفخ ، لكنها كانت تحاول دوما أن تشعرني بالدفء الغامر الذي خلقته منذ دخولها إلى بيتي للمرة الأولى و كأنها تكفّـر عن ذنب كبير ، كانت تقدم لي الطعام بطريقة أشبه بالطقوس المقدسة و كأنها تريد أن تعزز تلك الكلمة التي تركتها على باب الثلاجة عندما غادرت أو ربما تعتذر عنها .

أحيانا كان يلح علي هاجس استجوابها بطريقة غير مباشرة لأسبر غور المساحات المغطاة من حياتها قبلي و بعدي لكنني في الواقع كنت منصرفا إلى التفكير بأهلي هناك الذين يقبعون تحت خطر

الاحتلال و الحركات الكثيرة التي ملأت أرض العراق و التي تدعي جميعها أنها على الجادة الصحيحة و ما عداها كفرة فجرة لا جزاء لهم إلا القتل ...والقتل العشوائي يحصد رؤوس العراقيين أطفالا و رجالا و نساء لا يفرق بين أحد منهم و ما تبقى منهم تتلقفه معتقلات أكثر النظم ديمقراطية في العالم لتمارس أكثر الأساليب وحشية و بدائية ولكن ألم يقولوا يوما : (إن الغاية تبرر الوسيلة) فما المشكلة مع بعض الدماء إذا كان فيها تحرير الإنسان حتى و لو لم يتبقَ إنسان لينعم بهذه الحرية ..المهم هو الانتصار للفكرة!

ذات ضحى أتاني صوت نينت المتألم عبر الهاتف ، كانت تحاول أن تكتم صرخاتها فتبادر إلى ذهني فورا أنها في حالة المخاض فقد آن وقت ولادتها، قالت لي أنها على وشك الولادة و أنها ستدخل غرفة الولادة بعد قليل ...في هذه البلاد الشمالية لا بد أن يحضر الشريك ولادة شريكته سواء كانت زوجته أم صديقته .. كنت أنتظر منها طلبا كهذا و قد سألتني فعلا على استحياء أن أكون موجودا بالجوار . وعدتها بأن أحضر في أقرب وقت ..مكثت طويلا في غرفة الانتظار الملاصقة لغرفة الولادة ...بعد قليل أتت الممرضة تحمل لي البشرى : رزقت بطفل جميل ... تهنئتي لك !

أنا ؟ رزقت ؟ يا للهول لقد ظنوا إني والد الطفل ، لم يفهموا القصة بعد لكن لا بأس على أية حال لا يعتبر هذا عيبا في هذه البلاد و نحن نكيف استقبالنا للأشياء وفق البيئة التي نعيش بها ...بالرغم من شعوري بالاستياء أن ينسب لي طفل ليس لي لكنني توجهت إلى غرفة الحضانة ..كان هناك ضمن السرير الزجاجي طفلا بسمرة و ملامح عربية مميزة فعلا ، شعرت بعاطفة حنو غريبة تجاه هذا الطفل و أحسست كم طهرت هذه الأمومة عاطفة نينت و صقلتها من أدران الماضي و شوائبه . توجهت إلى غرفة نينت كان الإعياء يبدو واضحا على وجها ، ابتسمت لي ابتسامة واهنة و شاكرة : جلال أحس الآن بالاطمئنان ...أشكرك للحضور النبيل .

أتت الممرضة المسؤولة عن تسجيل بيانات الولادة : ما الاسم الذي اخترتم لطفلكما ؟

ردت نينت بدون تردد: جلال محمد.

نينت للمرة الأولى أفصحت عن اسم عائلتها و قرنته باسمي .

قالت لي : كنت أريد أن يقترن اسمي باسمك في وثيقة رسمية ، أنا أحمل الجنسية السويدية و بإمكاني منح الطفل اسم عائلتي ...أعرف أنك ستغادرني قريبا لكنني أردت الاحتفاظ منك لو باسم .

أحسست بأن وجود نينت في حياتي كان ضروريا دوما فهي تمنحني الأمن الداخلي الذي افتقده رغم أنني لا أوافق على كل تصرفاتها و لا على أسلوب حياتها

بعد خروج نينت من المشفى كنت مصرا أن تمضي فترة أمومتها الأولى في بيتي لأستطيع العناية بها ..كان الاهتمام بالطفل شيئا ممتعا حقا ..هذه البراءة لا يمكن أن تقاوم .. كنت أصحو في الفجر لأراه و قد استيقظ في سريره ...كان هادئا وديعا بعكس طبيعة أمه المتمردة و الصاخبة ...كنت أجلس بجوره أطالع نقاءه و جماله و أقترب منه لأشمه و أقبل ملابسه الصغيرة الممتعة ...

-هل تحبه يا جلال ؟

- ألا يحمل اسمي ؟ كيف إذا لا أحبه ؟ ربما هو الطفل الوحيد الذي سيتسنى لي الشعور به عن كثب في هذا العالم .

- عندما تعود للعراق ستكون لك عائلة و أطفال و ستنسى جلال إلى الأبد ... لكن ثق تماما أنك في قلبه .

هزتني هذه العبارة من الداخل بعنف .

- نينت ، كيف تعرفين أنني سأعود ؟

- لم تترك وراءك ما يشين في وطنك لتخشى العودة يا جلال ، هذه طبيعة الأشياء و لا بد للطير أن يعود إلى عشه و لو بعد حين .

شعرت أن نينت تريد أن تحكي لي كل شيء فالتزمت الصمت احتراما لرغبتها.

-كنت طالبة في المرحلة الثانوية عندما غرر بي زميلي في المدرسة و انتهك عذريتي ، يقولون إن بلدي متحررة جدا لكن أمي بمجرد أن علمت بطريقتها الخاصة سلطت علي أبي و إخوتي و أبناء عمومتي لقتلي ، أعرف أنني كنت مخطئة لكنني لم أكن الوحيدة هناك شريك لي فلماذا أعاقب أنا فيما هو ينتقل لأخرى يغرر بها دون أي رادع أو لوم من المجتمع .

ساعدتني الخادمة في الخروج من الغرفة المقفلة و البيت الموصد في جنح الليل ، سرت على غير هدى حتى وصلت إلى شاطئ البحر .

وقفت على صخرة عالية كنت في لحظة سأرمي نفسي في البحر و ساءلت نفسي : لمَ لم تتركي هذه المهمة لأهلك يقومون بها ؟

رميت نفسي في الماء بكل شجاعة و يأس أيضا ..لا أعلم إلا أنني استيقظت في كوخ أحد الصيادين و عندما استفهمت عن مكاني وجدت أن المياه جرفتني إلى قرية أخرى مجاورة ، قدرت أن الله لا يريدني أن أموت الآن ، تسللت إلى سفينة تجارية مع مجموعة من المهاجرين غير الشرعيين ، حشرنا جميعا في قبو السفينة حيث الروائح الكريهة و ضيق التنفس و الجوع و البرد ... تعرضت

للتحرش منهم جميعا ، في بداية الأمر كنت أجفل منهم و انكمش في داخلي ، لكن مع مرور اليومين الأوليين بات الأمر عاديا لدي و خصوصا أن الظلام هو السائد في هذا القبو ... عندما وصلنا إلى ايطاليا كانت عذريتي قد انتهكت مرات كثيرة.

لم يكن لدي ما أتقنه لأتكسب منه و أمضيت أياما في الشوارع أقتات بجسدي و عندما أشعر باقتراب البوليس أتسلل إلى أي قطار لأجد نفسي في دولة أخرى إلى أن حطت بي الرحال هنا ... تعرفت إلى شاب سويدي ..فتنته سمرتي العربية و استمع لقصتي بكل انتباه و محبة ، عشت معه في شقته إلى أن اصطحبني يوما إلى مكتب الزواج قائلا لي أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لأكون مواطنة وأحصل على الإقامة الهادئة ...كنت أريده أن يتأنى قليلا فهذه الخطوة كبيرة بالنسبة له و خطيرة لكنه أعلن لي أنه يحبني بصدق ... في الحقيقة لم أحبه أبدا لكنني شعرت بتقدير و احترام كبيرين لهذا الرجل الكريم الذي منحني الحياة مرة أخرى .

بعد عام واحد من الزواج و حصولي على الجنسية ،رزقنا بطفل جميل هو " وليد " الذي سألتني مرة عنه .

كان طفلا رائعا أشعرني بروعة الأمومة و قدرتها على خلق حب الحياة في قلبي من جديد رغم أنه ولد معلولا محكوما عليه بالموت في آن قصير .

توفي الطفل تاركا وراءه فراغا كبيرا ثم ما لبث أبوه أن لحقه تاركا ديونا كبيرة للبنوك ، فقدت عائلي و فقدت بيتي و أي مورد يمكن أن أعتمد عليه ، لم أكن خلال هذه الفترة قد تعلمت شيئا لأتكسب منه .. في البداية حاولت كثيرا لكني في نهاية الأمر وجدتني بكامل زينتي على باب أحد المطاعم ... كانت الخبرات السابقة قد منحتني احترافية في الأداء مما جعلني مرغوبة لدى هذا الشعب البارد .

صمتت قليلا ربما لتريح الدموع المنهمرة على خديها بغزارة ثم أردفت منهية الحديث : أنت يا جلال منحتني الحياة مرة أخرى ..علمتني الوجه الآخر منها.

كان الاعتراف الضخم الذي أدلت به " نينت " موجعا لي و لها و لكنه أيضا منحها مكانا كبيرا في قلبي لا أنكر أن للشفقة العامل الأكبر فيه...

كنت أهاتف أهلي يوميا من مغتربي هذا و كان صوت والدي يأتيني منكسرا حزينا كطفل أضاع أمه في الزحام ، ثم بدأ إخوتي يردون على الهاتف نيابة عنه و أسروا لي انه فقد النطق أو ربما الرغبة في النطق ..و إنهم منذ شهرين لم يعودوا يسمعون صوته أبدا.

إلى أن أتى هاتف النعي ذات صباح حزين كئيب على غرار كل الصباحات التي تلت وفاة أمي،

-جلال ، توفي والدك.

كانت مكالمة تليفونية قصيرة و مقتضبة و أقفل الخط بعدها .

أقمت مراسم العزاء و صلاة الغائب كما أقمتها من أجل أمي في المرة السابقة وواساني الأصدقاء لكنني بت أحس أنني يجب أن أعود فلم أعد أطيق أن أسمع خبر وفاة احد من عائلتي و أنا هنا في منفاي البعيد .

صفيت أعمالي و مستحقاتي المالية و العملية ، أعطيت نينت كل متعلقاتي الشخصية و الأثاث الموجود في الشقة تحسبا لعودة غير محتملة و هذه عادة أدمنتها من تجولي في العواصم العربية و الأوروبية أن أترك في المكان الذي كنت فيه شيئا ما يجعلني أشعر أنني ربما قد أعود و ها أنا أترك أشيائي و نينت و طفل يحمل اسمي.

كانت رحلة العودة شاقة فليس ثمة طائرات مباشرة نحو بغداد بعد أن دمر المطار بعملية يقولون أنها كانت آخر معقل للدفاع عنها قبل احتلال بغداد.

كان علي أن أقطع بالقطار نصف أوروبا ممتلئا بالرغبة في رؤية أرض الوطن فلم تكن تلهيني المناظر الطبيعية الخلابة و البيئة النظيفة التي كان يقطعها القطار.. كان قلبي معلقا هناك في بغداد و على الجسور الجميلة و السمك المسكوف و الرصافة و الكرخ و

مقاهي بغداد الأثيرة إلى نفسي و باعة الكتب المستعملة و مسجد موسى الكاظم و مسجد الإمام أبي حنيفة النعمان و كل رموز بغداد بتنوعها الحضاري و التاريخي و الإثني ... كنت مشتاقا أن أقبل فيها كل ذرة هواء تسبح في فضاءاتها .

عبرت تركيا أيضا إلى أن وجدت نفسي وجها لوجه أمام أرض عربية ثانية ..تلك إذن هي سورية ؟

لأول مرة سأضع قدمي على ثرى بلاد الشام هذه الأرض المباركة ..الحاضرة في وعينا و قلوبنا دوما امتدادا و عمقا عاطفيا و جغرافيا لأرض العراق الكبير

و كانت المسافة التي قطعتها إلى دمشق بالسيارة قصيرة طويلة ...كنت أشبع نهم عيني بالجمال الآسر ... قد تكون ربوع أوروبا معتنى بها بطريقة أجمل و أكثر حرفية و لكنني هنا على مرمى قبلتين من الوطن ... ثم أليس هذا أيضا جزء من وطني الكبير ؟

و في الصباح الباكر جدا دخلت تلك المدينة التي يقولون إنها فصلت للتاريخ عباءته .. التي يقولون إنها أقدم عاصمة مأهولة في التاريخ ..كانت في بكورها ما تزال في طور استفاقتها يدغدغها شعاع الشمس الأولي ...نزلت من الباص الذي أقلنا منذ الحدود السورية و حتى دمشق ... كنت لا أعرف إلى أين أستطيع أن

أمضي و ما هي الإجراءات التي سأتبعها هنا ريثما أرتب أموري للاتجاه مباشرة نحو الوطن.

استوقفت تاكسي و طلبت منه أن يقودني إلى شقة مفروشة أستطيع بها أن أنال قسطا من الراحة أنطلق بعدها لأتم الإجراءات اللازمة .

أخبرني أن هناك تجمعين رئيسيين للعراقيين في دمشق و أنه يستطيع أن يقلني نحو أحدهما لكنني طلبت منه أن يأخذني إلى شقة مفروشة في حي دمشقي معروف.

استغرب هو مني هذا و استغربت أنا نفسي هذه الخطوة لكنني كنت أود أن أتعرف إلى هذا الشعب عن كثب بعد أن احتضن مليونا و ربعاً من اللاجئين العراقيين بكل محبة و كرم.

كانت الشقة المفروشة التي قادني لها تقع في حي المزة و رغم أبنيته العالية إلا أن إحساسي بالأمان و الألفة كان كبيرا جدا ... لا أحس أن الشقة باردة و لا أحس أن هناك أشباحاً ستخرج لي من تحت السرير لدرجة أنني لم أقم بتفحص الشقة كما هي عادتي قبل أن أستلقي على السرير .

فتحت باب الشرفة لأتنسم عطر أشجار الربيع المزهرة و الياسمين الدمشقي الذي تشتهر به هذه المدينة ... خرجت للشرفة لأجد ثمة شجرة مزهرة في حديقة البناء و عندما سرحت النظر بعيدا وجدت

المدينة تستقبل أشعة الشمس الأولى و الحياة تدب على أرضها و بدأت الحافلات بالتحرك و البشر بالاتجاه للعمل .

رن جرس الباب ...من يمكن أن يكون و أنا لم أمضِ بعد ساعة واحدة في هذا المكان ؟ فتحته فإذا به بائع الحليب .

صباح الخير يا أستاذ، حمد لله على سلامتك ، هل تريد حليبا ؟

و رغم أنني لا أستسيغ الحليب كثيرا لكنني وجدت نفسي مدفوعا بقوة نحو الموافقة.

لا أدري كم من الوقت نمت لكن الذي أعرفه أنني استغرقت في النوم بعمق لم أجربه منذ سنوات عشر لأجد أن المكان بات معتما ، كانت تقريبا الخامسة و النصف مساءً و أذان المغرب يصدح في الحي بلحن غير معهود لي ،،،سالت الدموع من عيني و تذكرت أنني لم أصل منذ فترة كبيرة ..لاحظت أن مئذنة المسجد قريبة مني ..غبطت نفسي أنني أستطيع سماع المؤذن في كل صلاة و الاستمتاع بصوته الشجي الآسر ...دخلت المسجد ووقفت بين جموع المصلين يؤمهم رجل كبير في السن بلحية بيضاء مرتبة و ثياب بيضاء نظيفة وعباءة خفيفة من الصوف البني

بعد الصلاة لم يغادر المصلون مكانهم بل جلس الإمام قبالتهم و شرع يفسر حديثا نبويا شريفا ووجدت نفسي مدفوعا بقوة أيضا لأسمعه

كان يتكلم عن خلق المسلم و ما يجب أن يتحلى به من حسن السلوك ...كم كان حديثاً مميزا نفذ إلى شغاف قلبي بكل سلاسة و يسر

لدى الخروج من المسجد سألت أحد المصلين عن مكان أستطيع شراء حاجيات بيتي منه فرافقني بكل طيبة خاطر.

الله يرضى عليك شوف جارنا شو محتاج و توصى به .

شكرا لك يا أخي.

كم هي كلمة مقدسة هذه الـ " يا أخي" تلغي جميع الحواجز بينك و بين الآخر ... صحبني الرجل إلى السوق و هو يعلمني أبجديات التعامل مع الباعة في هذه البلاد و التي لا تختلف عنها في كل بلد عربي وطئته.

كان عليّ أن أحصل على شهادة بخلوّي من فيروس نقص المناعة المكتسب (الإيدز) . استغربت هذا الإجراء و لكنه بدا مهماً لاستكمال الإجراءات الأخرى للإقامة لفترة في سورية .

توجهت إلى مركز الكشف عن الأمراض المعدية، هكذا يطلقون عليه هنا و شعرت أن هذه البلاد حريصة على مشاعر أهلها حتى المصابين قلا تفاجئهم بالاسم المرعب على لافتة المركز .

كان المكان مكتظاً بالعراقيين غير أنه لم يخلُ من بعض الجنسيات الأخرى.

توجهت إلى الغرفة التي يتم فيها سحب الدم .. أتت الممرضة ألي و ربطت الحبل المطاطي حول يدي .منذ الطفولة لدي فوبيا من المحقن عندما سحبت يدي بفزع ذات مرة بينما كان طبيب الأطفال يحقنني بالدواء..عانت الممرضة كثيرا و لكنها لم تستطع سحب قطرة دم واحدة و كأن الدماء تجمدت في عروقي .فتحت باب الغرفة و طلبت مساعدة من أحد الأطباء .. دخلت إلى الغرفة على عجل طبيبة شابة و كنت مشغولا بالانتهاء من هذه المهمة الصعبة فلم أنظر إليها أبداً لكنها ما إن وضعت يدها على المحقن ورأيت كم هي جميلة و أصابعها متناسقة و الخاتم الذهبي يحاصر أصبعها بكل أناقة حتى وجدتني مدفوعاً لأرى صاحبة اليد الجميلة ..كان وجهها جميلاً حقا بل و أكثر من هذا مغرياً جداً ...استطاعت بمهارة و دربة يبدو أنها اعتادت أن تسحب الدم ثم قالت : النتيجة غدا الساعة العاشرة صباحا.. كنت أتمنى لو أنها لم توفق في سحب الدماء .. نظرت إلى البطاقة المعلقة على صدرها : د.سما ضياء .

خرجت من الغرفة ابتسامتها طبعت نفسها في ذاكرتي إلى الأبد.

لم أرَ مثل هذه الثقة بالنفس و الاعتداد بالذات لدى أنثى في حياتي كلها .. ركبت سيارة تاكسي و طلبت منه أن يقلني إلى جبل قاسيون فقد سمعت أنه أحد العناصر المكونة لدمشق .. استغرب مني السائق هذا الطلب في أول النهار و قد اعتاد أن يقل زبائنه

إلى هناك في الليل ثم استنتجت أن قاسيون هو الملتقى الأمين لعشاق دمشق.

النظر إلى المدينة من الأعلى يجعلك تدرك كم هي هذه المدينة خالدة و متميزة و موغلة في التاريخ . استمتعت بالجلوس هناك طويلا إلى أن اشتدت حرارة الشمس طلبت من السائق أن يعيدني إلى المكان الذي أقلني عنده.

لست أدري لمَ طلبت منه هذا و الواجب أن أذهب فورا إلى شقتي لأتناول طعاماً و أنال قسطاً من الراحة .. و مع أنني لست من مؤيدي فكرة الحب الصاعق أو الإعجاب السريع لكنني وجدت نفسي مدفوعاً بقوة لأراها .

كانت تلك اللحظة كلحظتنا ونحن طلاب في المرحلة الثانوية نستعجل الخروج من مدارسنا لنحظى برؤية وجه الحبيبة عن بعد قبل أن تذهب إلى بيتها .

أتراني أعيش مراهقة أخرى في هذا العمر الذي يفترض أنني وصلت فيه للنضوج ؟ كل الذي أعرفه أنني مدفوع بقوة لرؤيتها مرة أخرى.

أحسست بزلزال هادر يهز كياني عندما خرجت برفقة زميلاتها وهي تضحك.

ودعتهن واستقلت سيارة خاصة يقودها رجل في الثلاثينيات.

عدت إلى البيت و لا شيء في ناظري سوى صورتها الأنيقة و الجميلة و أمضيت الليل كاملاً أنتظر انبلاج الصبح كي أذهب إلى مركز الأمراض المعدية و أراها.

هذه الحالة من الاندهاش زايلتني عمرا طويلاً ، كأنها دماء جديدة حارة تضخ في عروقي

في الصباح حلقت ذقني بعناية و أسرفت في التعطر وارتداء الأكثر أناقة و جاذبية من ملابسي .. خرجت من البيت .. في داخلي رغبة بالمضي سيرا على الأقدام نحو المركز و لكنه يقع في الطرف الآخر من دمشق و الجو دافئ يميل قليلا إلى الحر و لا أريد أن أصل هناك و أنا متعرق تفوح مني تلك الرائحة الواخزة التي أمقتها جدا.

استوقفت سيارة أجرة و طلبت منه أن يقلني إلى مركز الأمراض المعدية فقال لي بتلقائية : مركز الإيدز؟ ! مط شفتيه باشمئزاز ثم أردف : اللهم عافنا .

وصلت إلى هناك وأنا أمنّي النفس بلقاء ذات الوجه الذي سكن ليلي و حرمني لقاء المنام .

دخلت إلى غرفة استلام النتائج و لم أجدها هناك

يا لغبائي هل لطبيبة أن تكون في غرفة استلام النتائج !

كنت أريد أن أتذرع بأية حجة كي أستطيع الدخول إلى أقسام المركز لأجدها و أكلمها أو أجد وسيلة أخرى للتواصل معها .
خرجت و أنا أحسد حنيناً على خفيه..شارداً كنت أمضي و لم ألحظ أنني اصطدمت بشخص ما و أوقعت ما في يده من أشياء و كتب .
انحنيت كي ألملم أشياءه وأنا أردد كلمات الاعتذار و رفعت وجهي فإذا بها أمامي.
- أنت ؟ صباح الخير .
- أعتذر كنت شارداً في أمر ما و لم أنتبه .
- لا عليك .. يبدو أن هناك ما يقلقك ...هل استلمت نتيجتك ؟
- نعم وهي سلبية .. كنت واثقا من هذا لكن المرء في هذه المواقف يبقى قلقاً .. كأنه في زواياه لا يعرف نفسه جيدا أو يظن أنه في نومه عاش حياة أخرى لا يستطيع أن يتكهن بخفاياها و أسرارها .. هذا ما حصل لي فرحت بالنتيجة كما يفرح بها إنسان يشك بإصابته بالمرض.
- لا يبدو عليك أنك من أولئك الذين يمكن أن يلتقطوا العدوى بهكذا مرض .. هل لي أن أعرف ما هو مجال عملك؟
- أنا مهندس بترول أعمل في شركة نفط أوروبية و حاليا في طريق العودة نحو العراق.

لمحت في عينيها ظلال أسى لدى ذكري العراق .
يمكنني أن أدعوك إلى فنجان قهوة في استراحة المركز .. إذا أردت .
لا تعرف هي أنني كنت أتلهف لهذه الدعوة و أعتبرها ضربا من محال . وافقت على الفور.
في الواقع لا أملك الوقت الكثير في عملي لأشرب القهوة و لست من هواة المنبهات لكنني شعرت برغبة في الكلام إليها ... أعرفك بنفسي أولا أنا دكتورة سما ..
أنا جلال ..و كما أسلفت لك مهندس بترول.
و أين تسكن في العراق؟
بغداد. و لكنني أصلا من الجنوب.
مممممم نحن هنا غالبا لا نعرف الكثير عن مدن العراق فيما عدا بغداد و البصرة و الموصل .
ذلك لأن المدن الفرعية و إن كنت لا أراها فرعية لا تحوز إلا على اهتمام أهلها .
لكن أرض العراق تختزن الكثير من الجمال وإن كنت شخصياً لا أرى أجمل من دمشق في الكون بأسره ..
لن أجادلك في هذه فدمشق مدينة تسكنك بمجرد أن تتنفسي هواءها .

شربنا القهوة ثم استأذنتها و كلي رغبة بالبقاء معها لأطول فترة ممكنة لكنني قدّرت أن لديها عملاً .

كنت أريد أن أسألها عن رقم هاتفها لكنها بادرتني و أخرجت بطاقتها و قدمتها .. هذه بطاقتي و عليها عنوان عيادتي و هاتفي ...أنا أداوم في العيادة مساءً إن احتجت لشيء فأنت على الرحب و السعة .

كنت في ساعتها كطفل يوم العيد منحه والداه عيدية كبيرة .. كان جل ما أخشاه أن أغادر دون أن أعرف شيئا عنها .

لست ممن يؤمنون بالحب الخاطف الذي يحدث في لحظة واحدة و كثيراً ما كنت أسخر من رفاقي عندما يصفون هذه الومضة التي تسلب اللب وتحيلك إنساناً آخرَ في لحظة لكنني تعلمت من الحياة أن ما أسخر منه سأصاب به يوماً وبقوة .

عدت إلى البيت ..طلبت غدائي من المطعم المجاور و فتحت التلفاز لعلي أشاهد ما استجد من أخبار عن العراق .. كانت الخسائر كبيرة و الدمار مروعاً وبصعوبة أتعرف على معالم بغداد ،اتصلت بإخوتي في العراق .. وصفوا لي الوضع كم هو سيء و لا يطاق لكنني أخبرتهم أنني في سورية و أنني في الطريق إليهم خلال أسبوع ريثما أنهي الإجراءات اللازمة .. لم يصلني فرحهم أو حبورهم لعودتي لكنني عللت هذا ببرودة أسلاك الهاتف والوضع المزري الذي بلغوه بعد الاحتلال ...

قضيت في دمشق أياماً ثمانية كنت أكلم الدكتورة سما كل يوم تقريباً ، تناولت معها الغداء مرتين ... بسرعة كبيرة تآلفنا وأخبرتني أنها بطبيعتها تلقائية ولا تتحفظ كثيراً في علاقتها بالآخرين ما دامت في الأطر المناسبة و المقبولة اجتماعياً .. كانت تربي طفلين صغيرين وقد انفصلت عن زوجها منذ خمسة أعوام ..في اليوم ما قبل الأخير من إقامتي في دمشق واتتني الشجاعة لأدعوها إلى الغداء ..

بما أنك لم تزر الشام القديمة بعد فسأصحبك إلى هناك ... هذه أمكنة تسلب لب كل دمشقي و كل زائر لدمشق.

كنت سعيدا جدا بقوة انتمائها للوطن و محبتها له وهذه أشياء ظننتها انقرضت في عصر الخيانات و الاحتلال و الحريات المعلقة على ظهور الدبابات و تعلمت منها بالمقابل محبة هذا البلد ..

ليس بالضرورة أن تولد في دمشق أو يكون أبواك دمشقيين لتكون دمشقياً .. الأمر يتعلق بشيء آخر .. هذا وطن لكل الناس ..يحتضن الجميع و لا يفرق بينهم و يمنحهم من حنانه و رعايته سواء بسواء .. سافرت إلى بلاد كثيرة لكنني لم أرَ مثل الشام في محبتها للجميع .. لا تعتبر كلامي هذا تحيزاً ولكنك ستعرف معنى هذا الكلام يوماً ما.

عندما قابلتها ظهراً عند باب المركز لم تكن لوحدها وقف بجانبها طفلان جميلان نظيفان معتنى بلباسهما عناية فائقة .

- هيا يا أولاد قدما التحية لعمو جلال.
- صافحني ابن الخامسة بكل وقار و كأنما هو رجل كبير بينما التصقت الطفلة بأمها
- والآن هل تريدين أن يفوقك تيم شجاعة يا سهى ؟
كان لوقع الاسم على أذني مفاجأة سارة حتماً
إذن .. سهى ؟ مممم كم أحب هذا الاسم

تخلت فجأة عن رهبتها
لماذا ؟
أختي اسمها سهى
كسر الحاجز الوهمي الذي تخلقه عادة المقابلة الأولى بين شخصين بشكل انسيابي و مريح بيني و بين سهى واعتادت أن تخاطبني وجهاً لوجه دون أن تنطق اسمي ... أحسست أنها تحاول أن تخلق لنفسها رهبة متميزة مع أنها طفلة في السابعة من عمرها .. كانت حميراء الشعر بيضاء البشرة بشكل مدهش وفي عينيها توثب غريب ...و كانت نسخة مصغرة عن والدتها تشبهها بكل تفصيل صغير.
كان غداءً بالنكهة العائلية التي لم أتذوقها منذ زمن طويل جداً أو بالأحرى منذ مغادرتي منزل والدي في العراق متجهاً نحو أوروبا

خرجنا من المطعم و كانت الساعة تشير إلى السادسة تقريباً و مازال في الجو الربيعي بعض من " قرصة برد" على حد تعبير سما .
سنغادر نحن الآن لأنك ربما تحتاج لوقت ترتاح فيه ولتوضيب أشيائك.
لدي الكثير من الوقت فطائرتي تقلع في الحادية عشرة صباحاً.
إذن سأمر عليك في الساعة التاسعة لأقلك إلى المطار .
كنت أرجوها بعيني أن تبقى معي لبرهة أخرى وأحسست أنها التقطت الرسالة .
حسناً سنذهب الآن وسأتصل بك في السهرة .
كنت كمراهق صغير وعدته حبيبته بلقاء صغير في مدخل بناء، فرحت جدا بوعدها و ذهبت إلى البيت و مازال الشذى لما جرى يسبح في داخلي و يتمشى كالعطر في أوردتي ليمنحني خدراً لذيذاً لم أشعر به منذ وقت طويل جداً ...
صنعت لنفسي كوباً من القهوة و خرجت إلى شرفة البيت لألقي نظرة متأملة أخيرة على هذا المكان الذي أحببت كثيراً ..
لا بد أن الأحداث اتخذت مسارها بسرعة كبيرة و عادة لا أثق فيما يحدث بسرعة فغالب ظني أنه ينتهي بسرعة أيضا ..لكن هذه المرة مختلفة جداً ولابد أن عامل الوقت مهم لأبني رباطاً مع سما كي

نستطيع التواصل على الأقل ربما لبناء أسس لعلاقة مستقبلية متينة.

كنت أنظر للساعة ما بين دقيقة وأخرى منتظراً اتصالها بفارغ الصبر .

وفي العاشرة تقريباً رن الهاتف .

- مساء الخير جلال.

- مساء الفل .. لماذا تأخرتِ ؟

- كنت أرتب نوم الطفلين وأعد احتياجات الأولاد للغد ..هل أخبرتك أن الغد هو عطلة بالنسبة لي؟ و بما أن الأطفال في المدرسة أستطيع تناول الفطور معك

- حقا ؟ كم أنا سعيد لهذا ؟ أين سنلتقي ؟

- لا تزعج نفسك سآتيك بالفطور .. لن يكون لدينا الوقت للذهاب إلى مطعم.

- تأتين هنا في شقتي ؟

- نعم و ما المشكلة في هذا؟ هل يضايقك الأمر ؟

- لا لا لا قطعاً لا و لكنني كنت أظن أنك لا تحبذين هذا.

- إذن دعني أخبرك شيئاً يا صديقي..أنا أظن أن علاقتي بالمقربين لي يجب أن تبنى على الثقة التامة و بما أننا قطعنا شوطا في صداقة لم نخطط لوجودها من قبل وإنما أوجدها الله بيننا فلابد من إخبارك

أنني أثق بك كثيرا وهذا يؤسس لعلاقة إنسانية مستمرة على مدى الوقت

-و لكن مجتمعك ؟

-المجتمع لا علاقة له بي أو بك إلا إن خرقنا هذا العهد الاجتماعي بما يشين .. ثم من يحدد ما هو المشين في الموضوع ؟ و هل أن يزور رجلٌ امرأة أو العكس يعني أن يكونا بعلاقة مشينة ؟ ألا أستطيع أن آتي إليك أو تأتي إليّ دون أن يكون في بال أحدنا ذلك التفكير الجسدي ؟ طالما أنا افعل ما لا أخشى منه في سيرتي قلا يهمني إن عرف به الملأ.

كانت جريئة جداً بالنسبة لامرأة شرقية لكنها أعجبتني جداً فهي مثال العقلية المنفتحة و أيضا ستتناول معي الفطور في بيتي.

-سما أحتاج أن أكلمك في أمور كثيرة قبل سفري

- أعرف ما تريد أن تكلمني به ، أنا أقرأ لغة العيون جيداً و أعرف أنك أرسلت لي طاقة ايجابية تقبلتها روحي دون أن تغلق الباب أمامها .. أليس هذا ما تود قوله؟

- عادة أنا لا أثق في الأشياء سريعة الحدوث.

- قصدك لا تؤمن بالحب من النظرة الأولى، هيا جلال دعنا نسمي الأشياء بمسمياتها ... نحن لسنا مراهقين ونستطيع أن ندير محاكمة عقلية سليمة وذكية أيضاً.

- حسناً لا بد أن أعترف أنني أحببتك من النظرة الأولى .
- لا بد أن أعترف أنا بهذا أيضاً .
كانت أجوبتها الصريحة و حوارها الهادئ بمثابة صاعقة لي نسفت كل ما رتبته من سيناريوهات من أجل الوصول إلى هذه اللحظة التي اختصرتها في بضع جمل.
- أنت تعرفين أنني أعود للعراق بعد أن صفيت كل أعمالي في أوروبا و أريد أن أستقر هنا ..و تعرفين أيضا أنني لا يمكنني البقاء دون عائلة.
-هذا من حقك طبعاً ..الوطن أغلى من الروح ..إذن تريد أن تتزوج في الوطن .. ومن الوطن أيضا ؟
- لا لا حتماً أنا اتخذت قراري .
- للتو قلت لي أنك لا تثق في الأشياء التي تأتي بسرعة .
- ما قصدت بالسرعة أنني لم أحبك أو لم أربط مصيري بك ولكنني أراك أنثى مكتملة و ناجحة وقوية الشخصية و أريد أن أرتب ما يليق بك .. و قبل هذا أن تتعرفي عليّ أكثر وأتعرف عأليك أكثر.
-هل هذا عرض؟
- أيمكن أن تعتبريه هكذا ؟
- نعم لكن ما هي الخطوة القادمة ؟

- سأغيب في العراق لمدة شهرين ريثما أرتب أموري ونبقى على تواصل يومي خلال هذه الفترة لنتعرف أكثر على بعضنا.
- حسناً يعجبني هذا الاقتراح.
- نلتقي في الصباح.
- نعم في الصباح .. تصبح على خير.

بعد أن أنهت سما المكالمة أحسست بضربات قلبي تدوي واستغربت أن أشعر بالفرح و الحزن في آنٍ معاً ؟؟ هل لأنني سأفارقها لمدة من الزمن أم لأنني تهيبت الخطوة القادمة وأحسست أنني تورطت في علاقة إنسانية لا اعرف إلى أين ستقودني ؟

قضيت الليل كله وأنا أفكر وأتمعن وأتذكر كل كلمة قالتها ويجتاحني الشوق لمحادثتها ثانية وأتمنى لو أنني أستطيع أن أطلبها دون أن أشعر بأنني أزعجتها.

في الثالثة إلا ربعاً فجراً ما عاد بإمكاني الصبر تناولت الهاتف و قررت أن أدعه يرن لمرة واحدة فإن لم تجب أغلقته.

للمفاجأة ردت من أول مرة وأخبرتني أنها كانت تنتظر اتصالاً مني و تحادثنا طويلاً إلى أن أذن الفجر . استأذنت مني ووعدتني بالمجيء في السابعة صباحاً وأغلقت الهاتف.

كانت عيناي شبه مقفلتين .. نمت عميقا إلى أن سمعت جرس الباب .

لم أنظر إلى الساعة .. لا بد أنه بائع الحليب.
فتحت الباب لأراها أمامي بإشراقة صباحية .
- صباح الخير يبدو أنك نعسان.
- لا لكني منذ أن أقفلت الهاتف لم أشعر بشيء من حولي .. هذه المرة الأولى التي أنام دون معاناة.
- والسبب؟
- صوتك ملأ كل الشروخ في روحي .. لم يعد من مكان لحضور آخر مهما كان مخيفاً
-هل تخاف أيها الطفل الصغير ؟ قالتها بابتسامة كبيرة ورنت في مسامعي كما قالتها نينت يوماً لكن بمذاق مختلف جداً.
- أحضرت لك فطوراً دعني فقط أقم بإعداد الشاي.
- لا تتعبي نفسك يا أميرة ساعده بنفسي.
-أميرة ؟ من أميرة؟
- و هل من أميرة في حضرتك ؟ لا يليق بك إلا أن تكوني أميرة .
ابتسمت أيضا هذه المرة توردت وجنتاها خجلاً
-جلال .. عباراتك شعرية أو تشبه الشعر ... هل تقارف الكتابة ؟
-نعم في بعض الأحيان و أعزف على العود أيضا .
-هذه بداية لشيء مشترك فيما بيننا
-حقا ؟

-حقا.

شربنا الشاي و تناولنا الفطائر وأخبرتني عن تفاصيل كثيرة و أخبرتها عن تفاصيل كثيرة . كانت تلقائية كما عهدتها دوما و بسيطة و أنيقة في تصرفاتها و في طريقة تناولها الطعام و ارتشافها الشاي و كانت أصابعها مثيرة حقاً و هي تتناول الأشياء و تضعها أمامها

-هل أنهيت ترتيب الحقيبة ؟

- لم أرتبها بعد.

- يا للهول لم يبق إلا ساعتين فقط.

- أرتبها الآن .. أستاذنك لبعض الوقت.

-هل من مانع في أن أساعدك ؟

- حقا ؟... يشرفني هذا .

رتبت معي الحقيبة بتلك اللمسة الأنثوية الرقيقة .. كانت عنايتها بطي القمصان والأربطة والملابس تشي بأنها امرأة دقيقة ومرتبة و غاية في الأناقة وكنت أحس بنشوة خفية لأنها اعتنت بأغراضي و أضفت عليها من روحها نتفة من محبة .. هكذا كنت أظن و عاهدت نفسي أن أبقي تلك الحقيبة على ترتيبها لأضعها في بيتي أيقونة مقدسة .

سما في ثمانية أيام عرفتني بنوع من الإناث لم أعهده في حياتي ... تلك الرقيقة و القادرة في آن واحد على اتخاذ القرار ... لا تنتظر من

أحد شيئا ولديها روح المبادرة .. لا بد أن الله منحني هديتي الأثمن في الحياة .

أزف وقت الرحيل .. سبقتني هي إلى السيارة وحملت حقيبتي و تبعتها وسلمت مفاتيح الشقة للمالك ثم تبعتها إلى السيارة .

- حسنا ضع الحقيبة في المقعد الخلفي .

جلست بالكرسي الأمامي بجانبها .

-كم يستلزم من وقت الوصول إلى المطار ؟

كانت تنظر إلى الطريق أمامها و هي تقود ثم قالت لي

- افتح التابلوه و انتق أسطوانه مناسبة .

كانت اسطواناتها رائعة فيروز وأم كلثوم و ... ناظم الغزالي ؟

- ناظم الغزالي؟

- نعم أعشقه جدا هل تود أن تسمعه الآن؟

-لا الصباح لفيروز فقط.

وضعت الأسطوانه في السواقة و فيما أسحب يدي ارتطمت بيدها على المكابح

كانت دافئة وطرية وضعت يدي ،ابتسمت في خجل شديد لكنها لم تسحب يدها

شعرت بكهرباء غريبة تسري فيما بيننا ..

-2-

مطار بغداد الدولي .. بعد غياب سنين عشرة .. مختلف هذه المرة و كئيب .. وملامح غريبة تملأ صالاته .. هذا الرجل الأمريكي بسحنته القاسية الملامح .. وجهه شمعي لا تعبيرات به ..

-هل لديك ما تصرح به ؟

-أصرح بذاكرة وطن خبأتها في طيات قلبي ..

أحسست أنه يكتم ضحكة ساخرة ولست أدري لماذا فهو في الموقف الأقوى وأنا مواطن مسلوب الوطن .. تحسست شيئاً حاراً يحتك بساقي ... التفت فإذا به كلب بوليسي ضخم .. هذه هي آخر صيحات الديمقراطية و إمعاناً في إذلال النفس العراقية ..هل كانت عودتي خطأ لن أسامح نفسي من أجله ما حييت ؟

غادرت المطار وركبت سيارة أجرة .. كان علي أن أعبر الشوارع البغدادية التي كانت يوما جنات مزهرة .. فقدت بهاءها والجسور التي كانت يوما متنزه البغداديين امتهنت القطع فلم يعد ما بين الضفتين جزءا من جسد واحد .. كل عالم لا ينتمي للآخر رغم أنني في قلب بغداد العاصمة المنكوبة .

بغداد كأنما لا أعرفها أبدا .. بدأت أشعر بذات الشعور الذي داهمني عندما وطئت قدماي أرض السويد .. هذه العلاقة الجدلية ما بين الوطن و المنفى .. من يكون الوطن ومن المنفى ؟ و متي يكون الـ " هنا " وطنا و الـ" هناك " منفى ؟

أسئلة كثيرة تتزاحم في رأسي المتعب.. إحساس بالمهانة والذل

" و اللي مضيع وطن كيف الوطن يلكاه "

انسابت أغنية الفنان سعدون جابر بكل عنفوان عبر مذياع السيارة .. كأنه كان يستقريء الحاضر .. نبوءة بضياع الوطن كنت أرفضها وأنا هناك .

لمَ تجتاحني كل هذه الأفكار ؟ لمَ لا أفكر في الحادث السار الذي سيكون بعد قليل ؟ سأكون في بيت أهلي في أحضان إخوتي .. كم أشتاقك يا سهى ؟ و كم أحن لرؤية أولاد جبار وقد كبروا سنوات عشرا.

توقفت السيارة أمام البيت الكبير .. كانت هناك مجموعة من أطفال يلعبون .. لم أتبين واحدا منهم ..كما أقدر أعمارهم لم يولد واحد منهم في حضوري..

طرقت الباب فصرخ أحد الأولاد :

محمد رجل غريب يدق على بابكم ..

محمد بدلا من الاندفاع لسؤالي من أكون وقف في زاوية .. علمتهم هذه الأيام الكثير من الحذر والخوف من أي قادم.

تعال يا محمد .. من أبوك ؟

أبويه جبار.

أنا عمك جلال .

عمي جلال اللي في السويد؟ لماذا عدت يا عمي؟

فاجأني سؤاله الكبير نظراً لصغر سنه .

فتح الباب وخرجت زوجة أخي.

-يمه أجا عمي جلال .

- جلال ؟ الحمد لله على سلامتك.

أدخلت الحقائب إلى باحة الدار الواسعة ظل كل شيء لم يتغير منذ سفري ماعدا العدد الكبير من الفوانيس الزيتية والحيطان الرمادية الكالحة وكأنها لم تنظف منذ فترة طويلة .

اندفع إخوتي وأبناؤهم لتحيتي .. كبرت العائلة كثيرا في غيابي والأبناء الذين تركتهم صغاراً صاروا شباباً ..

خرجت من باب جانبي في الصالة .. هي هي لم تتغير .. زادتها السنون جمالاً رغم بدانة ظاهرة .. تلك سهى.

اعتنقتني بكل محبة و انفرطت الدموع من عيني وعينيها..

سهى تلك التي أرى فيها وجه أمي .. وحنانها وطيبتها ..

جلست بقربي :
صرت سمينة يا سهى ..
أجابتني زوجة جبار
سهى حامل بتوأم
سعدت أن أسمع خبرا كهذا لدى قدومي فهو مما يبشرني بخير
أين أحمد ؟
اندفعت الدموع من عينيها .
-أحمد في (أبو غريب).
أيقنت الآن أننا مهما نحاول أن نتناسى فجيعتنا في الوطن لن نستطيع .. فمن كل بيت فقدت نتفة من العراق ..ها هو أحمد أيقونة معلقة على الجدار لا تغادره إلا إن عاد الوطن .. وحتى في هذه الحالة قد يكون المتبقي لدى أحمد ضئيلاً أو لا متبقيَ أبدا .
أسرعت زوجتا أخي و أعدتا طعام الغداء واجتمعت العائلة كلها بصخبها و ضوضائها الذين افتقدتهما منذ زمن ..كنت أرى في عيني أخي جبار أسى و حزنا وقدرت أنه موجود في أعين كل العراقيين ..
أسررت بعد الغداء في أذن أختي سهى رغبتي في النوم قليلا فأنا متعب من الرحلة .. في الحقيقة لم يكن هذا ما يدور في بالي لكنني كنت أفكر في سما .. كنت أريد أن أخلو لنفسي قليلا كي

أستطيع مماتفتها وطمأنتها كما أوصتني في اللحظة الأخيرة قبل دخولي قاعة المغادرين في المطار .

عندما صافحتها كنت أود أن أضمها إلى صدري فربما لا أعود ثانية إن اغتالتني رصاصة أو مفخخة أو لربما اتهمت بالإرهاب ..لكنني كنت وجلا من الموقف بحد ذاته ..

اتصل بي حالما تتمكن من هذا .. سأشتاق لك كثيرا .

اشتقت لك منذ الآن.

سهى كانت مرتبكة قليلا ثم دعتني إلى غرفتها وهي أصغر غرفة في البيت والتي كنت أجد فيها مستراحا بين حيطانها الوردية وستائرها المطرزة الشفافة ..

- أريد أن أنام وسأدخل طبعا غرفتك فيما بعد.

- للأسف يا جلال ليس ثمة غرف فارغة هنا .

- وغرفتي ؟

- حولها أخوك إلى غرفة نوم لأولاده الأربعة.

شعرت بالأسى وأحسست أنني فقدت مكاني في هذا البيت منذ رحيلي الأول إلى السويد .. لم أبغ الحكم وفقا لعاطفتي وقلت في نفسي إن المنطق يقتضي أن يوسع على نفسه وعياله ما دام الأخ غائباً .

دخلت إلى غرفة سهى .. لم تعد جميلة كما كانت تراكمت فيها أشياء سهى التي أحضرتها من بيتها .

هل أحضرت كل أغراضك هنا؟

منذ تعرض بيتي للقصف في الحرب وأنا أقيم هنا ، أحمد الله أن نساء إخوتي يتحملن وجودي في البيت .

لا تخشي شيئا يا سهى سنكون معا .. لا تقلقي.

سهى أعارتني هاتفاً جوالاً . اتصلت بـ " سما"

أتاني صوتها متلهفا ..

-هه جلال هل الأمور بخير ؟

- نعم بخير لكنني أفتقدك.

- وأنا أيضا ..

ملأني صوت سما بالحب الكبير وشعرت أنني أستطيع أن أجابه مجرة بأكملها طالما سما تملؤني.. ليس أجمل من حضور سما سوى صوتها السماوي ..

و برغم حضور أختي سهى أمامي إلا أنني في نهاية المكالمة قلت لها :

سما ، أحبك.

صمتت قليلا كأنما باغتها شيء ما .

جلال اتصل بي وطمأنني عنك كلما تسنى لك .. دير بالك على روحك.

أغلقت السماعة وأنا أتساءل فيما إذا كنت ضايقتها أو تعجلت الكلمة .. لكنها كانت تملأ كياني كله .. وقلبي ينبض بها .. لم أقلها لأحد بعد منال أبدا لكن سما أعادت لي حياة أخرى وأملاً جديدا .

ابتسمت سهى بخبث اعتدته منها منذ طفولتها ... لكنه الآن ممزوج بتلك العاطفة الأمومية الجميلة .. كأنها أخذت دور أم جبار ..كأنها قررت في لحظة ما أن تكون أمي

تحبها ؟

أكثر .. أتعرفين ما معنى أن أحب دمشقية ؟ أتعرفين كيف تستطيع تلك الأنثى ملأ ساحات روحي ؟ سما أنثى لا تتكرر كثيرا .. فيها الكثير منك ومن أمي ... فيها الكثير من العراق ..

في حقيقة الأمر لم أكن بهذه الطلاقة فيما قبل في التعبير عن مشاعري ، بالأحرى كنت أخجل من التعبير عنها لكنها بقوة حضورها شحنتني بطاقة غريبة لأعلن لكل العالم أنني أعشقها.

تذكرت حينها عجوزي صقلية و قدرت أن ربي سيسعدني حتى لو بعد انتظار ..

سهى استغربت الكثير من تحولاتي وبدأت في مشاكستي كعادتها .. أحسست أن الكآبة التي كانت تحيط بمحياها ساعة وصولي بدأت

في الانقشاع شيئاً فشيئاً وبدأت تستعيد معي ما خربشنا منذ زمن طويل على حيطان الطفولة.

كانت صورة أمي الحاضرة بشكل أقوى لدى فتح صناديق الذاكرة ربما لأنني وسهى نلنا قسطاً وافراً من الدلال و العناية ، بالرغم من أن والدتي كانت تعلن دوما أن كل أبنائها سواء لديها في المحبة لكننا كنا نحس هذا الخيط الرفيع الواصل بيننا بكل شفافية حتى بعد رحيلها.

صحوت بعد غروب الشمس لأجد أن العائلة كلها مجتمعة في الصالة الرئيسية للبيت واستغربت هذا التجمع المبكر في البيت لكنهم ذكروني أنه لا يؤمن على الحياة خارج عتبة المنزل بعد غروب الشمس بسبب حظر التجول و انتشار جنود الاحتلال و قدرتهم الرهيبة على القتل بكل بساطة ..حتى أنهم أخبروني أن جميع حفلات الأعراس صارت تجري في العصر وتنتهي قبل المغرب كي يتسنى للجميع العودة إلى بيوتهم بأمان قبل بدء موعد حظر التجول.

لا يختلف المحتل في أي بلد .. أليس هذا ما جرى في فلسطين قبلاً؟ ومهما تعاطفنا مع الفلسطينيين وأظهرنا حزننا من أجل ما ينالهم من حقد الصهيوني لن نشعر بها إلا إذا جربنا وها نحن الآن على محك التجربة .

يبدو أن الحياة هنا ستتخذ عادات جديدة وقيماً جديدة تتناسب مع الوضع الحالي ريثما يقضى الله أمراً كان مفعولا.

في الأيام التي تلت كانت الحياة تسير على وتيرتها المعتادة وكنت مشغولاً إلى أقصى درجة بالبحث عن مسكن مناسب لي وآخر لأختي .. وعثرت في نهاية الأمر على ضالتي .. كانت سهى سعيدة بتجهيز البيتين بالرغم من أنها في شهور حملها الأخيرة .. واستلزم منا أكثر من شهر للاستقرار في البيت الجديد..

دفعت بأوراقي إلى وزارة النفط العراقية كي أستعيد وظيفتي السابقة ولم أدهش حينما عينت بسرعة .. يرجع السبب في هذا إلى تدهور الحالة الأمنية في البلد والتي دفعت الكثير من مهندسي البترول إلى الهروب خارج العراق أو الإحجام عن التعيين ريثما يستقر الوضع ..

كنت أهاتف "سما " يوميا و في كل مرة أغلق السماعة أشعر بحنين جارف إليها ... هذه حالة لم أجربها من قبل أبدا .. سما باتت من مفردات حياتي اليومية بل إنني أحيانا أشعر أنني أتنفسها مع كل قطرة أوكسجين لازمة لحياتي.. كانت تبدو متحفظة جدا في التعبير عن مشاعرها بالرغم من أنني أختم كل مكالمة بقولي : احبك.

كانت تسكت تماماً للحظة ثم تقول : إلى اللقاء .. أكلمك غداً ! كان هذا يؤلمني كثيراً ويبقيني مستغرباً لساعات طويلة بعد أن أكلمها

أفكر كيف هي تعطيني كل هذا الاهتمام وتقتطع من وقتها يوميا ساعة أو اثنتين للحديث إلي ثم لا تزال تتحفظ في مشاعرها .. لكن لن ألومها فسما من فئة من البشر يولون المنطق الأهمية الكبرى وربما ما يزال تعارفنا ولقاؤنا مثيراً للدهشة لديها .. في الحقيقة لو أخبرني أحد من قبل أنني سأعيش هذه الحالة يوما لهزأت به .. لكن الحياة دوما تضع قناعاتك على المحك وكأن لا هم لها سوى أن تمتحنك..

هذه الليلة كانت حارة حقا وانقطاع الكهرباء وحظر التجول ما زال سارياً كلها عوامل مثيرة للملل .. ومؤلمة أيضا .. جلست في العتمة الدامسة بجوار النافذة .. لم يخطر ببالي أن أوقد شمعة وتصورت أنني سأكون أكثر استجماعاً لشتات أفكاري في السواد..
أتاني صوت هاتفي برنة طويلة .. لو كنت قبالة مرآة لتسنى لي رؤية حجم اتساع ابتسامتي .. كانت سما .
كنت كطفل صغير حصل على كمية من الهدايا المفاجئة دفعة واحدة .. لا يعرف أياً منها يفتح .. لا يعرف بأي منها يفرح .. كنت أنتقل من موضوع لآخر وأبتر جملة من منتصفها لأبدا أخرى .. فهذه أول مرة تبادرني سما بالاتصال وبعد أن تحدثنا طويلا قالت لي : تصبح على خير .. أحبك .

كما كانت هي تبهت في العادة صمتت أنا .. كانت مباغتة .. فكان ردي همهمات لم أعرف ما قلت فيها .

أمضيت الليل فيما بعدها أستعيد تنويعات صوتها وجماليته الآسرة عندما قالت أحبك.

كم أقنعت نفسي أن هذه الحال من الانشغال بالآخر حالة غير موجودة .. نخترعها لنسكن بها أوجاع الروح .. لنخدعها .. نضع بها رشة سكر على ملوحة الحياة .. لكنها الآن واقع معاشي في هذه الظلمة الحالكة .. لم يعد يعنيني أن أعد الساعات المتبقية لنور الكهرباء فأنا هكذا أفضل تحتوي الظلمة مقدار فرحي و سعادتي ولا يشاركني بها أحد .

يبدو أنني منذ عرفت سما سأختبر حالة من تقويض القناعات التي عشت عمري أبنيها .. وكانت سهى تراقبني عن كثب .. لا أعرف بالضبط ما هو شعورها الحقيقي لكنها تقول إنها سعيدة من أجلي .. كان انشغالها بمولد التوأم أكثر ما يشغل بالها .. وكان يشغل بالي أيضا .. أحاول أن استقصي عن زوجها المعتقل في (أبو غريب) ولا أجد عنه أية إفادة وكأنه " فص ملح و ذاب" لكنني لن أيأس حتى أعرف مآله من أجل الطفلين أو الطفلتين لست أدري.

حضرت مع سهى كل مستلزمات المواليد في الوقت المتاح أثناء رفع حظر التجول ورغم الشعور الجميل بالخؤولة وهي كما قرات يوماً "

أمومة مذكرة " إلا أنني كنت أرتعد من هاجس أن أبقى دوماً في استقبال مواليد ليسوا لي .. أرتعد من الموت قبل أن يقول طفل ما لي : بابا ..

صحيح أن " نينت" أسعدتني بإطلاق اسمي على ابنها لكنه في نهاية الأمر نوع من الرثاء أو لنقل كأنني مت فكان نوعاً من بقائي في جدران الذاكرة معلقا كاسم عليها .

كانت سهى توصيني لدى خروجي ولدى عودتي بالتزام الحذر خصوصاً وأن المفخخات مزروعة في كل مكان والأمريكان لا يوفرون من تبقى من أذاهم اللامحدود .. كانت سما أيضا توصيني ذات الوصية ولكأنهما كتبتا اتفاقا فيما بينهما بأن تبقياني طول النهار تحت تغطية نصائحهما .. وللحق كنت سعيداً بهذا خصوصا وأنا أرى كل يوم الكثير من المآسي والانفجارات على شاشات التلفزيون وأسمع في المحطة يوميا عن فقدان أحد ما بانفجار أو اختطاف.

وهذا اليوم وصلت إلى المحطة لأجد الجميع في ذهول تام فقد انفجرت إحدى السيارات القادمة إلى المحطة واستشهد فيها احد المهندسين الشباب .. تعطل العمل جزئياً و انشغلنا بمراسم العزاء ثم عدت متأخراً إلى البيت قبل أن يسري حظر التجول بدقائق فقط.

وجدت سهى تزرع البيت جيئة وذهابا وهي في قلق وألم فقد سمعت أنني أنا من قضى في الانفجار .. كانت ملامح وجهها تشي

بألم تحاول أن تخفيه لكنها في لحظة واحدة صرخت صراخاً أليما .. كانت في لحظات المخاض .. نقلتها بسرعة إلى المشفى وقبل أن تمضي أقل من ساعة وضعت سهى توأمها الجميل .. وفاء وصفاء .. هكذا آثرت سهى أن تسميهما وكانتا جميلتين كأمهما.

بقيت حتى الصباح بين سريري الطفلتين وأنا مندهش لبراءة الطفولة وقدرتها على خلق السعادة حتى في أحلك الظروف.

حاولت أن أتصل بسما .. لكن تبين لي أنني نسيت هاتفي في المنزل .. كان علي أن أتجلد حتى الصباح فهذه الليلة الأولى التي لم أكلم سما فيها منذ قدومي.

عدت صباحا إلى البيت لأغير ملابسي وأذهب للمحطة بعد أن قدمت زوجة أخي لرعاية سهى .. وجدت الهاتف على أرضية الصالة والمكالمات التي لم يرد عليها أكثر من خمسين والرسائل القصيرة تحتاج إلى نصف ساعة على الأقل لقراءتها جميعاً

طلبت الرقم ..

ألو سما .. أنا قليل الذوق .. أعتذر كنت مع سهى في المشفى.

انفجرت سما بالبكاء وهذه المرة الأولى التي أسمع صوت بكائها .. لطالما كنت أقول إنها قوية الشخصية .

هل تعرف كم قلقت عليك ؟

عرفت الآن .

إذن لا تفعلها ثانية .. مباركة ولادة أختك ..عقبالك .
يااااااه يا سما .. الله كريم .
ليس أكثر من هذا ما يستطيع أن يشيع السعادة في قلبي و روحي ...كم أشتاقك يا سما .
أضيفت إلى مهامي الكثيرة مع رعاية سهى رعاية طفلتين مولودتين للتو وكان هذا مصدر سعادة لي فعلاً .. وإن كنت أحس أن سما بدأت تغار قليلاً من محبتي للطفلتين. وبدأت تشتكي من انشغالي عنها وتقلص الفترات التي كنت أحادثها بها هاتفيا . شعرت بهذا بشكل مبهم في البداية وأثار قلقي من جهة وسعادتي من جهة أخرى ..
سما كيف حال الأولاد؟
بدأت مكالمتي معها بهذه الطريقة وأحسست أنها فوجئت بسؤالي عن الأطفال قبل سؤالي عنها .
بخير و الحمد لله .. ألا تسأل عن أم الأولاد ؟
سما .. ربما لن يكون لي قدر إنجاب أطفال من صلبي لكنني أدخر سهى و تيم ليكونا سلوتي عندما أهرم . وانتبهي محبتي لهما لأنهما جزء منك وليس العكس .. ليس ثمة أحد في الكون سيكون مكانك فما أشعلته في قلبي وروحي لم اختبره قبلاً وأظنني اكتفيت فلا أريد اختباره مع أحد بعدك.

في كل لحظة أحادث فيها سما أو أفكر فيها تتداعى إلى ذهني ذكرى عجوزي صقلية الرائعين وبت أدعو الله أن يهبني رفقة سما في اللحظات الأخيرة من عمري فقد أيقنت أن ليس ثمة من سيكون رؤوفاً بي سواها.

أتعرف ؟ كلما أمسكت هاتفي لأتصل بك أحضر كثيراً من الأشياء لأخبرك بها لكنني عندما أسمع صوتك أنسى ما كنت أريد قوله ويتولد كلام آخر لم أعده مسبقا .

إذن ما رأيك أن تكتبي لي ؟

أكتب لك ؟ في عصر الإنترنت والهواتف المحمولة ؟ هل ستعيدنا إلى العصور الوسطى ؟

ألم تجربي مرة انتظار الرسالة ؟ ألم تجربي مرة أن تتحرقي شوقاً وأنت تفضين المغلف لتصلي إلى كلمات الرسالة ؟ عندما أتصل بك تعرفين مسبقا أنني سأرد عليك وليس أحد آخر.. توقنين أن ما سأقوله وليد اللحظة .. لكنني أحب أن تؤرخ المشاعر الجميلة .. سنمضي أياماً طويلة فيما بعد لقراءتها .. والتلذذ بالذاكرة التي تتضمنها .. ما رأيك ؟

لم يكن متاحاً الاستعانة بالبريد العادي نظراً للظروف الأمنية بين البلدين لكن قررنا استخدام ساعي بريد العصر (الانترنت) .

حتى هذا الوقت لم يتسنَ لي التعرف على هذه الوسيلة من التواصل جيداً خارج حدود العمل عندما كنت في المهجر لكنني الآن سأتعرف إليه بطريقة مختلفة.. غلب على ظني أنه سيكون بريدا بارداً خالياً من نكهة الاستمتاع بخط اليد وتشمم أماكن لمس الأصابع للورقة وربما القبلة التي تطبعها عليها حال الانتهاء من الكتابة ... كنت أريد أن أجري هذا لأن حبا كهذا لا بد أن تكون أدواته مبتكرة وجديدة.

في المرة الأولى التي كتبت فيها بريداً لسما كنت خجلاً ومرتبكاً ولم أدرِ ما يمكن أن أقول لها فاكتفيت بها رسالة مقتضبة وصغيرة أسألها عن حالها وحال الأطفال وأوصيتها بأن تنتبه لنفسها جيداً وعندما أرسلتها ضحكت كثيراً من أسلوبي الصبياني .. هل هكذا يرسل العاشق لحبيبته بريداً ؟ لست شاعراً ولكن يتوجب أن أكتب لها بطريقة أكثر جمالاً ..

وكي أداري خجلي منها لم أتصل بها وقلقت من فتح البريد لأرى ماذا سيكون ردها عليَّ .

ولكن في نهاية الأمر كلما أهملت الأمر سيزداد تفاقما هكذا تعلمت وعليّ أن أواجه ما أخشى .

ارتجفت يدي وقلبي أيضا عندما أتتني إشارة : لديك بريد.

عندها أدركت أنها ليست الوسيلة التي نتداول بها البريد هي ما يضعنا عند حدود اللهفة والاشتياق وإنما ما تحتويه سواء كان في رجل حمامة زاجلة أو في كُم البريد الإلكتروني.

سما كانت واضحة وجميلة وصريحة حتى في رسالتها :

بعد مساء الخير

اشتقتك جداً جداً وأتمنى أن تكتب لي كلما فكرت بشيء مهما بدا لك تافهاً وغير مهم فهو بالنسبة لي لب الحياة ..

بكلمات بسيطة وبعيدة عن التنميق مترعة بالصدق والتلقائية .. هكذا رسمت لي سما خريطة دون أن تدري ..أو لعلها تدري حقا .

صار ديدني اليومي بعد ان أنتهي من العمل هو الجلوس أمام تلك الشاشة أتلقى الرسائل وأكتب رسائلي لها ..أحيانا أنسى أن أتناول طعامي وفي ساعات كثيرة أجد نفسي نائماً على لوحة المفاتيح .. هل هذه ما يعد مراهقة متأخرة ؟ أم ماذا ؟ يا مرحباً بها إذن.

اكتشفت بعد شهور من العمل في المصفاة أن ما يظهر على السطح ليس دائماً هو الحقيقة وأن الكثير من المؤامرات تدور في الخفاء ابتداءً من العلاقات الغرامية بين العاملين والعاملات وانتهاء بالرشى المتجاوزة للسبعة ارقام بالعملة الامريكية ..

كانت المرة الأولى التي اكتشفت بها هذا صاعقة كبيرة مرت بي .. كنت أظن أن من خانوا الوطن وباعوه هم من جاؤوا على ظهر الدبابة الامريكية ولكن الحقيقة أننا بتنا كلنا شركاء في نهب هذا الوطن .. يختلقون لنفسهم أعذاراً مختلفة منها أنهم لن ينالوا نصيبهم من الحصة سينالها غيرهم وربما تكون في جيب المحتل .. كانت الصفقات التي تمرر من تحت الطاولة أكبر بكثير من تلك المعلنة حتى أنني صرت أرى ظاهراً فقيراً وداخلا محشواً بالذهب ..

ومع هذا بقيت مراقبا صامتاً على الأقل فيما يبدو للجميع ما عدا سما التي كنت أحدثها بهذا يوميا في رسائلي وهي تقول لي : احرص على ألا تتلوث روحك .. لا شيء يبرر التنكر للمبادىء التي وطنت

نفسك عليها .. كنت أعتبرها ملاذي الذي أشتكي له والذي يعنني على البقاء صامداً لكن يبدو لي أن هذا لن يستمر طويلاً .

استدعاني المدير في الصباح إلى مكتبه .. كان وجهه بشوشاً مُرَحِّباً وأصرَّ على تناول الشاي والحلويات معه .. كنت مرتبكاً فهذا الشخص قابلته عدة مرات فيما يختص بالعمل ولم أتكلم معه خارجاً عن هذا أبداً لكنه بدأ يسألني عن سنوات الغربة و كيف قضيتها وعن حالتي العائلية ..وكنت أجيب باقتضاب متمنياً أن تنتهي هذه المقابلة الغريبة بأسرع وقت ممكن .

عرفت أنه يهيئني لأمر ما ويخترع بوابات يلج بها إلي.. هذا ما يسمونه في عالم العمل : إيجاد مفتاح .. لكنني لن أكون مطلقا باباً له قفل .. لن يرى مني إلا جداراً مصمتاً

لم ينتظر طويلاً ليفصح لي عما يريد مني .. كانت صفقة ضخمة بملايين الدولارات ولا تحتاج إلا إلى توقيع صغير مني يذيل باسمي !

لم أستطع أن أجيبه في تلك اللحظة مع أنني لا أمتلك لا حينها ولا فيما بعد سوى جواب وحيد هو الرفض .. بالرغم من أنني صامت لكنني لن أبيع العراق ...ولا ذرة في أرضه أو سمائه .

عدت للبيت منشغلاً .. أفكر كيف أنتهي من هذه المشكلة وأبني سيناريوهات مناسبة للتملص دون استعداء المدير ثم في اللحظة الأخيرة انقضها وأبدا في بناء مقترح آخر ..

فتحت الباب أختي سهى .. كانت الفرحة تكاد تقفز من عينيها
ـ أحمد راجع.
ـ حقا ؟ هذا خبر رائع ... متى ؟
ـ بعد قليل سيصل إلى هنا .

أحسست بتألق سهى اليوم أكثر من أي مرة أخرى رأيتها في حياتي .. فاتتني اللحظة التي أراها بها عروساً لكنني أعتقد أنها لم تكن أجمل منها اليوم ..كانت تدخل وتخرج من المطبخ إلى الصالة إلى الغرف في حركة مستمرة بدا لي أن باعثها الاضطراب وليس قضاء الأشغال فقد اعتادت سهى أن تنجز أمورها بعناية وتنظيم .
وقبل المغرب بقليل طرق باب البيت .. شحب وجهها وأنا أتوجه نحو الباب .. كان أحمد بلحيته الطويلة وملابسه المتسخة وحقيبة قماشية صغيرة أكثر اتساخا من ملابسه .
لم أنتبه إلى اللحظة التي عانق فيها سهى .. أو ربما خجلت من التلصص على خصوصية زوجين في لحظة لقاء حتى لو كان أحدهما أختي الغالية .
لكنني في اللحظة التي اقترب فيها أحمد من الطفلتين الغافيتين في عربتهما المزدوجة .. نظر إليهما بلهفة كبيرة ودمعت عيناه .. شعرت أن الخواء في جنبات الروح لا يملؤه إلا طفل لك .

ـ هيا أحمد لا داعي للبكاء في هذه المناسبة السعيدة .
ـ ليس بكاء .. هذه أمطار السعادة ؟
تذكرت ما تقوله لي سما أنها عندما تعتصرها السعادة تدرك عجز اللغة وبلاغة الدموع .. تسميها هي أيضاً أمطار السعادة .. ابتسمت في داخلي كثيراً وارتسم هذا على ملامحي جلياً .
ـ عاشق أنت يا جلال ؟
حرت لا أدري فيما أرد عليه ..فلم أعتد أن أحكي ما بداخلي لإنسان .
تناولنا العشاء ثم غادرت سهى وأحمد مع الطفلتين إلى بيتهما الذي لم تدخله منذ اشتريته لها سوى للتنظيف و الترتيب .
شعرت أنني في هذه اللحظة كنت لا أريد سوى الاختلاء بذاتي لأفكر في مشكلتي التي نحيتها جانبا بعودة أحمد ساعات قليلة .
أمضيت الليل ساهراً أفكر في وسيلة ما ونسيت ما حولي ...إلى أن استيقظت صباحا وأنا متكوم على الكنبة ورأسي يأكله الصداع .. خرجت من البيت وركبت في السيارة ثم خطر لي أن أمسك هاتفي لأجد رسائل كثيرة من سما .
"سأطرز كلماتي على حاشية الوسادة فحبيبي مشغول جدا "
"هل نسيتني اليوم ؟"
"لا تحاول أن تغيظني فأنا امرأة من النساء لا تغار "

ضحكت من كل قلبي ..و لمت نفسي لأنني انشغلت عنها ..
- صباح الورد.
- لا صباح و لا مسا أنا زعلانة منك..
كانت لكنة سما تبدو كأنها جادة ...أسقط في يدي.
طيب .. بس ترضي كلميني باي.
لست أدري لما كلمتها بهذه الطريقة الجافة وكان يفترض بي تطييب خاطرها .. لكن ما كان يشغلني كبير .
وصلت إلى المصفاة لأجد أن المدير يطلبني ..
- كيفك اليوم جلال؟
- شكرا لك .. أنا بخير .
- فكرت في موضوعنا ؟
- أريد أن تعفيني من هذا الموضوع ..أنا لا أقدر عليه .
- ستقدر إما برضاك أو غصباً عنك.
هكذا إذاً صارت اللهجة تهديدية ؟
-جوابي النهائي لا و لا تحاول مرة أخرى ..
لم يقل كلمة أخرى وغادرت مكتبه مملوءا بالغيظ من وقاحته .. عدت إلى مكتبي .. فكرت كثيرا وكنت أظن أن طاقتي الفكرية قد انتهت إثر ليلة البارحة ..لا بد أن قضاء ليلة مشغول البال مؤرقاً و

ما حدث مع سما صباحا والمشادة مع المدير كلها ساهمت في توتري وغضبي .

يحق لهذا المدير أن يغضب مني إذ كشف جميع أوراقه مرة أخرى ... و لشخص آتٍ من أوروبا أيضا حيث معيار المهنية والإخلاص في العمل لا يتطابق مع معيار موظفي القطاع العام في الوطن ..

لكن لا يحق لسما أن تغضب مني .. هي تعرف حجم انشغالي وتعرف أنها تحتل كل مساحاتي حتى إن لم أكلمها يوميا .. كنت مشتت الذهن ، مندهشاً ، غاضباً ، مستاءً .. كثير من المشاعر السلبية تعتريني .. تناولت هاتفي وطلبت سما .. شعرت أنني لست مستعداً لحديث مع أي إنسان حتى سما .

قطعت الخط وأغلقت الهاتف وانصرفت إلى الورشات لأغرق نفسي بالعمل .

عدت إلى البيت منهكاً جسدياً وفكرياً .. كنت متوجساً جداً من ردة فعل سما ومن رسالتها الواخزة للروح التي أتوقعها أن تكون في صندوق بريدي الافتراضي .. بين أن أتفحصه أو لا أمضيت قرابة الساعة ثم قررت مواجهة قدري بشجاعة .. ليست أسهل من خوض معركة عسكرية أبدا هذه الخطوة .. فتحت البريد لأجد أنه ليس ثمة رسالة من سما أبدا .. توجست خيفة فهذه ليست عادتها .. تناولت الهاتف بسرعة كبيرة و طلبت رقمها ثانية وبدأت أنتظر.

"المشترك لا يمكنه أن يرد " " المشترك لا يرد" " الخط خارج التغطية " عبارات كثيرة يقولها المجيب الآلي وأنا لا أملّ من تكرار الرقم ..بدأت الهواجس تغمر قلبي و تؤلمني : أتكون قد غضبت مني و خسرتها إلى الأبد ... سما شجاعة وتعلن ما تريده بقوة ... لماذا لا ترد علي ؟

طرق الباب ..كانت أختي سهى وزوجها و الطفلتان .. تذكرت للتو أنني منذ البارحة لم أرَهما .. كانا مشرقين مبتسمين .. أمضيا معي بقية اليوم والسهرة ثم غادراني .. استبقيتهما ليسهرا عندي لكنهما أعلنا عن رغبتهما في المضي إلى بيتهما .. لم أشأ أن أكون عذولاً بينهما و تذكرت أنني أريد وقتا لأستمر في اتصالاتي بسما .. لكن الجملة ذاتها تتكرر في كل مرة.

بكيت كثيراً وعندما انقطع التيار الكهربائي بقيت في الظلام الدامس .. لعلي لا أريد لجدران هذا البيت أن ترى دموعي.

صحوت في الصباح متعباً وبدأت بوادر الأنفلونزا تظهر علي .. لم أذهب للعمل وجاءت سهى لتعتني بي .. كنت محموما .. واستدعوا الطبيب... رأيت خيالات مرعبة كتلك التي كنت أراها في ليل الشقة الباردة في السويد .. مرت أمامي نينت ضاحكة كعادتها .. ثم سما باكية .. أمي و أبي وأولاد إخوتي .. كثير من الشخوص مرت أمامي ... عندما فتحت عيني وجدت أختي سهى تجلس بجانبي .

الحمد لله ... زالت الحمى .. جلال سأحضر لك الشوربة ..يجب أن تأكل .

أشرت لها بيدي أني لا أرغب في الطعام ..

جلست على طرف سريري وأحاطتني بذراعيها : شفيك جلال ؟ أجيب لك الدكتور ؟

انفجرتُ بالبكاء المر وسط حيرتها وقلقها.

- جلال ... لهذه الدرجة تحب سما ؟ طول فترة نومك وأنت تهذي باسمها.

- أكثر مما تتصورين.

لست أستطيع تفسير تلك النظرة التي حدجتني بها وأردفتها بقولها مبتسمة:

- عالبركة ..

عندما خلوت بنفسي عاودت الاتصال بسما بلا فائدة ..

نمت كثيراً إلى أن أتت سهى توقظني وتخبرني أن هناك ضيوفاً أتوا للاطمئنان على صحتي .

كن صديقاتها .. استغربت أن يأتين لزيارتي وأنا لا أعرفهن .. استغربت أكثر الزينة والملابس التي كن يرتدينها .. وكل واحدة منهن تحاول أن تستأثر بالحديث معها ...أعرف أني لست دون جوان

ولكنني رأيتهن متهافتات و سهى تدخل و تخرج وهي تبتسم ابتسامات خفية رأيت بها ملامح الخبث أحياناً .

بعد ساعات من الحديث النسائي الممل والثرثرة اللامنتهية غادرن مع أختي...السؤال الذي ألح علي طوال الوقت هو : لماذا لا أجد حديث سما ثرثرة مهما كان تناولاً لأشياء روتينية ؟ كيف تجعل من حديثها شيقاً لا أملّ منها مهما امتد بنا الوقت ؟ أهذا لأن صوتها يكفي بزرع كل بذور اللهفة في روحي؟ أم لأنها بغنجها المثير وطريقتها التلقائية في الكلام تبقيني مشدوها على مدار الساعات حتى بعد أن تغلق هاتفها ؟ حتى أنني عندما أقرأ رسائلها يخيل لي أنها تقرأها لي بصوتها ؟

حمدت ربي أنهن غادرن أخيراً فأنا متعَب وأريد أن آوي إلى سريري.. كنت يائساً من عدم رد سما ومن خلو بريدي من رسائلها .

بعد ساعة أو يزيد رن جرس الباب .. كانت إحدى صديقات أختي .. كانت تتصنع الغنج والإثارة

- رأيتك متعباً ومريضاً ووحيداً .. أريد أن أعتني بك الليلة.

- لم أفهم قصدك .

- يبدو أنك لم تكن مع امرأة منذ زمن طويل.

- إذن ؟

ضحكت بطريقة مبتذلة ذكرتني باللحظة التي التقيت بها نينت .. قد أكون قاسياً في هذا لكن لا أجد فرقا بينهما .. ما بين محاولة اصطياد زوج أو الحصول على زبون ليس هناك فرق كبير من الناحية الأخلاقية .. ومع هذا كان صعباً علي أن أصدها بطريقة جافة .. أغلقت الباب وفي نفسي أسى كبير .. هذه أختي تحاول أن ترتب لي زواجاً لا يضر بمصالحها ...يبدو أن العلاقات الإنسانية صارت رهناً للمصالح الخاصة حتى أن هذا التهتك طال علاقة الإخوة ببعضهم البعض.

حاولت طيلة النهار الاتصال بسما دون فائدة أيضا وكأن جميع المنافذ المتاحة إليها قد سدت ...وعند الغروب وأنا أحاول أن أغفو قليلاً رن هاتفي برقم جديد.. كان من بغداد ..أتاني صوت سما !

-سما !!

-مساؤوو ..

كانت هذه تحية سما الخاصة جداً عندما تكون في قمة ألقها .

- سما أنت بالعراق؟ شو تسوين؟

- كيف حالك؟ اشتقت لك .أريد أن أراك.

- أكيد .. وين تحبين ؟

- المكان اللي يريحك ..أنا في فندق الرشيد في ساحة الفردوس.

- أعرفه طبعاً لكن ما قلت لي شو تعملين هنا ؟

- أتيت مع وفد من الأطباء لحضور مؤتمر البارحة وسأغادر بعد غد صباحاً .

- ساعة وأكون عندك .

انخلع قلبي فرحاً من المفاجأة غير المتوقعة وبدأت أفكر في الأيام التي مرت وكيف أنها كانت تحاول أن تخبرني شيئاً ما وكنت مشغولاً جدا لدرجة أنني فوّت على نفسي فرصة انتظارها واستقبالها.

في محطة إذاعية يغني فؤاد سالم " أجيكي جناح شايل روح" ... حقا إن قلبي يسابق الطريق إليها.

دخلت الاستقبال .. توجهت إلى الموظف وشرعت في السؤال عن ...

أصابع رقيقة ودافئة أعرفها جيداً ربتت على كتفي .. استدرت بحركة بدت لي أنها استغرقت عمراً لأجدها أمامي .. سما بكل جمالها وروعتها ورقتها رقيقة وأنثى بكل ما تعنيه الكلمة

بيصير جلال اني عانقك؟

بيصير طبعاً .

تعلقت بي كطفل صغير وجد أهله بعد ضياع ..

استمر الحديث إلى ما بعد منتصف الليل في بهو الفندق الأرقى في بغداد .. تخلله الكثير من الضحك والبكاء والعتاب والاعتذار ...كأننا في ساعات عشنا عمراً جديداً.

-جلال أحب أن أبقى معك للصباح لكن عندك عمل صباحا وأنا لدي محاضرة ..لكن بعد الثانية سنقضي الوقت سوياً حتى موعد سفري صباح اليوم التالي.. كلمني عندما تصل وسنكمل حديثنا على الهاتف.

عدت مسرعاً إلى البيت وتناولت الهاتف بسرعة وطلبتها ثانية .. حديثنا هذه المرة اتخذ منحى آخر فأنا في حالة مواجهتي لها أبقى ملتزماً الصمت أمام روعتها ورقتها لكن عندما يأتيني الصوت فقط أحاول استجماع شتاتي.

- سما .. أنا أحتاجك إلى درجة لا يمكنك تخيلها ..أشعر برغبة كبيرة أن يكون لي طفل .. لا أريد لطفلي أن تكون أمه أنثى سواك .

- وأنا أيضا لكن العوائق ...

- هل يعارض أهلك في هذا ؟ هل لاختلاف المذاهب مشكلة ؟

- لا أعتقد هذا ... لكن زوجي السابق سيحاول ضم الأطفال إليه في حال زواجي وأنت تعرف كم أنا متعلقة بهم.

- سما .. ما رأيك أن نعقد قراننا اليوم ؟

- موافقة .. قالتها بلا تردد وضحكت ..

ضحكت أنا أيضا وابتلعت خيبتي.

ذهبت إلى العمل وأنا مشرق الوجه .. كل زملائي لاحظوا هذا واستغربوا مني ممازحتهم طوال الوقت بعد أن كنت أشبه بالصنم ..

في الساعة الواحدة كلمتني سما وأعلمتني أنها أنهت محاضرتها وأنها تستطيع مرافقتي كامل اليوم .

اتفقنا أن تتغدى عندي في البيت وتتعرف إلى أسرتي.

- الغداء قبل العقد أم بعده ؟

- أي عقد ؟

-هل سحبت عرض الليلة الماضية ؟

صعقت من المفاجأة

الآن سما .. الآن

أسرعت إلى الفندق .. سألت موظف الاستقبال إن كان ثمة رجل دين يعقد القران فأجابني أنه موجود بالقرب من الفندق ثم استدعاه بالهاتف .. نزلت سما من غرفتها وهي تلبس طقماً أبيضَ مطرزاً بزهرات وردية صغيرة .. كانت عروساً رائعة .. قام الشيخ بعقد القران وتوثيقه في عقد ابتدائي.

ورافقت سما إلى بيتي .

سهى اتصلت عدة مرات وهي تراني تأخرت في العودة إلى البيت فأخبرتها أن تعد الغداء لضيوف أتوا إلينا .. ووصلنا إلى بيتي..

سهى عندما رأت سما عرفتها ... بمرآة قلبها ربما ... بحدس الأنثى .. لكنني أحسست في عينيها لوماً وعتاباً.

- سهى .. عقدنا قراننا أنا وسما للتو

- الآن ؟ شو هالمفأجاة ؟
- حلوة صح ؟
- طبعاً ... طبعاً .. مبروك .. الحمد لله على سلامتك سما .
- الله يسلمك ... بادرتها سما بتقبيلها وسؤالها عن التوأم وأحوالها وبالكلمات الودية اللطيفة.. لكن أختي سهى كانت ممتعضة بعض الشيء وربما غاضبة ..لم أتيقن ساعتها سبب انزعاجها من سما لكنني أحسست بشكل مبهم أن سهى لن تتقبل سما أبداً ..

قدمت سهى الغداء والشاي ولكنها لم تغادر كما هي عادتها لتعود في المساء وإنما بقيت معنا .. كنت أتحرق شوقاً لأكون بمفردي مع زوجتي .. كم هي رائعة الوقع هذه الكلمة بعد طول انتظار والرابط بيننا عشق غريب .. كنت أراقب عن كثب تصرفات سما وأناقتها في كل تفاصيلها وأراقب أيضاً كيف تحدجها أختي بنظرات خفية .. وبعد ساعتين من الحديث الروتيني الممل عن الأولاد والطبخ والزوج والحياة الاجتماعية رنَّ هاتف سما ليعلموها من الفندق أن الوفد على وشك أن يبدأ الجولة السياحية في بغداد .. أخبرتهم أنها ستلحق بهم بعد قليل فمعها دليل عراقي ممتاز ..

-هل سترافقني إلى الفندق ؟
-و هل تعتقدين أنني سأتركك من الآن فصاعدا ؟

-سهى سأغيب بقية النهار فلا تقلقي .. لا تشغلي نفسك بي..
نظرت إلي سهى نظرة لوم كبيرة لم أرها من قبل بهذه الحدة ..فيما يبدو لي كانت تريد أن نبقى تحت رقابتها طوال بقائي أنا وسما معا..
و لكن مشروع اللحاق بالوفد و العودة للفندق لم تخطر لها على بال .. و ثالثة الأثافي حضور زوجها.. طلب منها أن تتبعه إلى بيتهما.!
كانت سما ذكية جدا و قدرت أن تستوعب الوضع منذ البداية وأن تحتوي سهى وعدم استلطافها لها..
ـ سما.. تستطيعين التصرف براحتك فهو منذ زمن بيتك . قلت لها .
استأذنتها لتغيير ملابسي كي نلحق بالوفد..
كانت تعرف بالضبط كيف أحب قهوتي ، وتعرف أيضاً كيف أتوق أن أراها
قدمت لي القهوة بكل أناقة وأشعلت لي لفافة تبغ :
لو رآني زملائي الأطباء أشعل لك سيجارة لقتلوني ..
وأتبعتها بضحكتها النازلة على مدينة القلب برداً و سلاماً.
..عدلت سما من زينتها و.. كان شعوري غريبا الآن .. سررت جدا أنها تحتشم في لباسها جدا و كم وددت أن لا تزين وجهها أبدا ..هل يا ترى استيقظ في داخلي الرجل الشرقي ؟ يجب علي أن أحبسه ثانية في ظلام سحيق .. مع امرأة مثل سما لا بد أن هذا شيء خطير حقا ويحمل نذر عاصفة.

و كان عليها في المقام الأول أن لا تعلن للوفد أننا تزوجنا مخافة شيوع الخبر في بلدها عند العودة ونزع حضانة أطفالها منها .. قمنا في السيارة باختراع سيناريو معقول لمدى علاقتي بها فكنت " ابن خالتها " المتزوجة منذ زمن طويل برجل عراقي ..وصلنا إلى المتحف البغدادي ووجدنا الوفد قد سبقنا إلى هناك .

كانت تحلق بينهم كفراشة لم يخلق مثلها أبدا وكانت تنتزع نظرات الإعجاب الخفية من الجميع دون استثناء إثر كل تعليق أو حركة تقوم بها ..في داخلي شعور جامح بأن أصرخ أن هذه الحورية الملاك حبيبتي ..

بقينا في قاعة بدأت ترتدي العتمة بعد أن خرج منها الجميع .

همست في أذنها مترنماً :

-أتمنى كون وياك أكضي العمر .

-اقعد عاقل يا مشاغب.

-بحبك سما .

احمرَّ وجهها كما لو كانت مراهقة صغيرة تسمعها للمرة الأولى .. وكان ظلام الغروب الذي بدأ يهبط خارجا كفيلا بأن انتهز الفرصة لأقبلها في غرفة هاربة من براثن التاريخ.

بعد جولة الوفد السياحية و عودته إلى الفندق .. دعوتها للعشاء لكنها لم تحبذ أن يكون في بيتي ..وبالرغم من أن الظروف الأمنية لا

تسمح بهذا كثيرا لكنني تفهمت موقفها فهي قد أحست بما أضمرته سهى تجاهها من عدم استلطاف ولكأنها لم ترد أن تستعديها منذ البداية وهي تسير معي طريق مستقبل غير واضح المعالم أو أن معالمه لم تتخلق بعد.. ولم نعد للفندق إلا في ساعة متأخرة لنجد أن رئيس الوفد ينتظر سما بنظرة فيها نوع من العتب و الاستفهام لتغيبها الكبير هذا اليوم .. شرحت له أنها لم تر خالتها منذ سنوات كثيرة و كان يوما مناسبا لتقضيه مع أسرتها لكنه فيما يبدو لم يصدق و فضل أن يتغاضى بإرادته ..

في الساعتين اللتين قضيتهما في البيت بانتظار بزوغ النور كي أودعها قبل أن تسافر كنت أفكر في هذا المستقبل الذي فتحنا بوابته دون أن نحسب حسابا للعواقب .. دون أن نخطط.. كانت فكرة عقد القران لمنح علاقتنا شرعية لازمة تمكنها من الحياة في هذا المجتمع و أدرك أن سما لم تكن لتسمح لي بالاقتراب منها مادامت العلاقة قائمة على كلمات! هي تدرك أن بداخلي ذلك الشرقي الذي مهما عاش في الغرب لا يستطيع أن يتملص مما في داخله .. و هي أيضا لم تتخلص من امرأة شرقية بداخلها هاجسها المختفي تحت طبقات من الدرجة العلمية و العملية .. هاجس يتملك كل فتاة شرقية ..

لكنني ضحكت كثيرا عندما فكرت أن ما نالنا من عقد القران سوى أشياء لا تذكر و أن علينا إبقاءه سرا كي تحتفظ بولديها و أنها عليها

أن تسافر بعد قليل و لست أدري متى سأراها ثانية أو لعلي لا أراها .

أحب سما .. نعم أحبها كما لم أعشق من قبل و لكني لا أنكر أنني اشتهيتها أيضا بكل بهائها و جمالها وربما هذا لا يقلل منه بل يزيده في عيني.

وعندما فطنت أن هذه الأميرة صارت زوجتي وليس ثمة شيء كثير لتوثيق هذا في بلدها وبلدي شعرت بالغبطة .. لم أتصور أن يكون هذا سهلا وبمتناول القلب لهذه الدرجة ..

اغتسلت ولبست أجمل ملابسي و تعطرت و انطلقت صوب الفندق .. كنت قد اتصلت بالشركة و طلبت منهم إجازة لمدة ثلاث ساعات ..

كانت سما تقف عند باب الفندق مع زملائها

-جلال .. كنت أخاف أن أسافر قبل أن أراك .. لمَ تأخرت؟

- لم أتأخر .. جئتك حسب الاتفاق .

- لكن الآن علينا المضي نحو المطار.

- ولو أن هذا مخيب للأمل .. لكن هل يمكنني أن أوصلك بسيارتي للمطار بدلاً من ذهابك بالباص؟

ذهبت سما إلى رئيس الوفد و كلمته بضع كلمات .. لمحت الامتعاض في عينه لكنه لم يعارض .. فقط أوصاها بعدم التأخر .

لمدة عشر دقائق كنت أقود السيارة صامتاً و أكاد في أي لحظة انفجر بالبكاء .. سما أيضا كانت صامتة .

- جلال .. حبيبي .. ما بك ؟

- لا أتخيل بعد اليوم أن تشرق الشمس و لست معي..

- لم يتسنَّ لنا الوقت للكلام في هذا الموضوع .. لكنك جلال ستأتي إلي ؟ أليس كذلك ؟

-حتما سآتي .. سما هل تقدرين أن تعيشي في العراق ؟

- والأولاد ؟

-يا سما .. بعد انتهاء سن الحضانة سيكونون في حضانة أبيهم .. فكري بطريقة عملية ..

- لكن إن لم أتزوج تبقى لي الحضانة ..و أنا لا أتخيل حياتي من غيرهم .. هذه أول مرة لا أبكي لغيابي عنهم في مؤتمر والسبب أنت .

-تلومين نفسك ؟ أم تلومينني أنني شغلتك ؟

-لا تفكر هكذا جلال .. أنت وهم بأهمية واحدة .. لا تنسَ أنك الآن صرت زوجي أيضا .

-هل أنت سعيدة بهذا ؟

-هل تريدني أن أكون ؟

-حتما.

-لا تطل الغياب لأني أشتاقك منذ الآن.
انخلع قلبي من مكانه .. أوقفت السيارة و أمسكت وجهها بين يدي ..
-سما لم أحب إنسانا في الكون كما أحبك..
انتبهت إلى أن وجهها قد أغرقته الدموع .. فانفجرت بالبكاء في حضنها .

.....

عدت إلى الشركة لأجد أن المدير قد أرسل في استدعائي مرات عدة .. و علمت أنه يريد أن يعرف إلامَ توصلت في موضوع الصفقة ..

رفضت بشكل قاطع أن أوقع أيا من الأوراق .. فهددني بشكل مباشر .. كنت لا أريد تصعيد الأمور إلى هذه الدرجة لكنه يعتبر أن هذه مملكته و لا يتصور أن يعارضه في إدارتها إنسان حتى و إن كان يفوقه في الدرجة العلمية ..

خرجت من مكتب المدير و قد فقدت أي رغبة بالعمل هذا اليوم .. عدت إلى البيت منهكا من ألم الفقد ... تمددت على سريري و أنا أحدق في السقف .. كانت هذه عادتي منذ الطفولة في بيت أهلي القديم عندما أكون في حالة نفسية سيئة أبدأ في قراءة الشقوق

في دهان السقف و أخترع لها حكاياتٍ وأشخاصاً .. للأسف هنا السقف بطلاء جديد و لا من رطوبة فيه لأستقرأ ملامحها.

دخلت سهى إلى الغرفة ... أحسست بحركتها رغم أني لم أرفع رأسي لأراها .. لم تكن مبتسمة كعادتها ..

-كلمتها دون أن أرفع رأسي ..

-أهلا سهى .. كيف حالك؟

- من الجيد أنك تذكرتني .. يبدو أن حبيبة القلب سدت عليك جميع المنافذ و لم تعد تفكر بها

- ما بك سهى .. اعتبريني عريسا يا أختي وعامليني على هذا الأساس.. ألا يدلل العريس عروسه؟

-عريس؟ منين يا حسرة ؟ عروسك سافرت و تركتك .. ما هذا الزواج الغريب ؟ جلال أنت جربت حظك مرة .. لماذا تحتاج أن تكرر التجربة؟

- ظننت أنك ستكونين سعيدة لأجلي.

-سأكون سعيدة عندما تكون بقربي و لا تتركني ثانية .. لا أحتمل غيابك مرة أخرى .. وها أنت ذا ربطت نفسك بأرض أخرى و إلى الأبد.

- اطمئني سأكون بقربك دوما .. لا تقلقي .

-ظننت أنها علاقة حب عابرة .. ظننت أنك تريد امرأة .. لم اعتقد أن الزواج في بالك.

- لا تتكلمي عن زوجتي بهذه الطريقة .. و أيضا ما الذي ينقصني لأتزوج؟ سهى لم لا تفهمين أنني أريد طفلا و أريده فقط من أنثى أعشقها .. هل فهمت ؟

- و أولاد إخوتك و أولادي أليسوا أبناءك ؟ أليس هذا أفضل من رعاية أطفال رجل آخر ؟ أليس أفضل من الإنجاب من امرأة لا تنتمي لنا ؟

-سهى أنت لا تريدين مني أن أتزوج؟ هذا ما أفهمه من كلامك ؟؟

سكتت سهى و غادرت الغرفة ... كنت منذ فترة قد بدأت أحس أن إخوتي بدأوا يتعاملون معي من منطلق مادي .. لا أراهم إلا عند حاجتهم للنقود و فيما عدا هذا يغيبون نهائيا ..و في كل مرة أحاول أن أكون حازما معهم أجد نفسي أستجيب لهم دون مقاومة .

تركتني سهى وغادرت إلى بيتها بعد أن ملأتني بالخيبة ولم تعد في ذلك اليوم ...

لست أدري كم من الوقت نمت حقا لكنني استيقظت والبيت غارق في العتمة الدامسة ... ظننت أن الكهرباء قد انقطعت لكنني لمحت ضوءا آتياً من وراء نافذة غرفتي فأيقنت أنني نمت منذ العصر و

حتى أتى الليل .. أتاني صوت الهاتف.. إنها سما ..كانت قلقة لأنها اتصلت مرات كثيرة و لم أرد عليها .. أخبرتها أني كنت نائما فزاد قلقها لأنها تعرف أني لا أنام في هذا الوقت...كانت تنتقل من موضوع لآخر كعادتها مثل الفراشات .. حدثتني عن الأولاد وأنها أخبرت أختها بزواجها .. و عن تعليقات رئيس الوفد على غيابها ...
تلقائيتها أخرجتني من حالة الحزن التي أعيشها ..
في الصباح مضيت إلى عملي و أنا أشعر بغصة كبيرة .. من الوضع المزري في المصفاة ..من أختي .. كنت لا أريد أن أقود السيارة فاستدعيت السائق :
-يا أستاذ ألا تحس أن السماء كأنها تعتصر نفسها ؟
-هذه تباشير البكاء .. كم هو ضروري و مهم !
سمعت صوتا غريبا آتياً من محرك السيارة .. لمع نور أحمر ساطع..بعدها غطى السواد كل شيء..
فتحت عيني مرة أخرى لأجد البياض يحيط بي !
هرعت إلي سهى و أحمد
سمعت حديثا يدور بين أشخاص كثر .. يقولون :
-الله سلم .. حماك الله من موت محقق.
-ما الذي حدث ؟

-سيارتك كانت مستهدفة .. وضع في أسفلها متفجرات انفجرت حالما سارت بضع مئات من الأمتار .. لم يكن بإمكاني في وضعيتي تلك أن أتفحص أماكن الضرر التي لحقت بي .. كنت لا أشعر بشيء من جسمي أبدا و كأنما كنت مخدرا بجرعة عالية .. كانت سهى تتولى كل قليل ترتيب أطراف السرير .. تعدل من وضع الأشياء في الغرفة والارتباك واضح عليها ..

-ما الذي حصل لي ؟ ما الأجزاء المتضررة مني ؟

- حصل خير إن شاء الله كسور في الساق اليمنى و حروق من الدرجة الأولى ستشفى إن شاء الله ..

-جبار (لا تخبي شي عني؟) هل هذا فقط ؟ . قلتها بصوت واهن إذ لم يعد بي من قوة للحديث

- ورب الكعبة ماكو شي .. الحمد لله على السلامة ... سائقك المسكين توفي إثر الحادث مباشرة..

- علي مات؟ كانت صدمة كبيرة .. كم أحببت هذا الرجل و لكأنه كان ينعي نفسه حين رأى السماء تعتصر نفسها ...لا بد أن مكانه سيبقى فارغا للأبد فبالرغم من قلة استعانتي به كسائق إلا أنه في كل مرة يقابلني بها كان يلقي في قلبي جملة تبذر نفسها في خابية الروح المثقلة بالوجع و هاهو قد رحل بالطريقة الأكثر بشاعة .. كان المقصود بهذه الجريمة أنا والآن هو يفتديني بروحه ..كم هو مؤلم أن

تعرف أن استمرارك في الحياة كان مقتطعا من حياة الآخرين وعلى حسابهم ..

دخل الطبيب إلى الغرفة ..

-كيف حال البطل اليوم ؟

- بطل ؟ ماذا تقصد يا دكتور ؟

-عرفنا تماما أنك الهدف الرئيسي لهذه الجريمة البشعة .. اسمح لي يا جلال أن أحييك .. لطالما قلت أن العراق في خطر يصنعه أبناؤه والآن عرفت أني مخطئ .. مادام في العراق من ينبضون حبا له لا يمكن أن نخاف عليه رغم كل الظروف .. كن شجاعا أيها البطل وقم بالسلامة من أجلنا ومن أجل العراق و سمعت أيضا أنك تزوجت منذ يومين..مبروك .. تستاهل كل الخير

ذهلت من كم المعلومات التي ألقاها الطبيب بسهولة وخرج .

بادرني جبار :

-جلال .. تزوجت ؟ من.؟

-نعم عقدت قراني منذ يومين .. سهى تخبرك بالتفاصيل .. أريد أن أنام.

كنت في الحقيقة محتاجا لترتيب أفكاري و محاولة فك الشفرات التي قدمها لي الطبيب.. كيف عرف أنني المستهدف بالانفجار ومن هم بالضبط ؟ والمقصود بالبطل وهذه الخطبة عن العراق؟ من أخبرهم

أنني تزوجت ؟ الشق الأخير وجدت إجابة منطقية له أما الأول فملغز حقا وعقدت العزم أن أسأل الطبيب عن كل التفاصيل حالما يعودني ثانية .

-سهى .. أريد الهاتف .. أريد أن أكلم سما.

- الهاتف ممنوع عنك جلال ..

- لو سمحت أحضري الهاتف ليس بي ما يمنع الكلام.

أحضرت الهاتف ..ردت سما بصوت من بكى طويلا.

-جلال .. ما الذي حصل ؟ هل ستبقيني حياتي كلها في قلق وانشغال دائمين ؟ هل تحاول أن تختبر مكانك عندي ؟ أم أنها محاولة ترويض لمشاعري تجاهك ؟

-سما .. اسمعيني حبيبتي .. أنا في المشفى .. تعرضت لحادث.

- أي حادث .. قل بسرعة .

- انفجار .

صمتت سما نهائياً ولم تعد ترد والخط مرفوع من جهتها .. ثم انقطع الخط بعد خمس دقائق

أتى أخي جبار بخبث و أشار إلى الهاتف بطريقة ساخرة ..

-هل يئست منك؟

-يا أخي اللي ما ياخد من ملته يموت بعلته .. لازم تتزوج عراقية تكون ستر و غطا عليك .

هذا جبار ينضم لمعسكر سهى .
-ثم ألم تجرب حظك مرة ؟ لماذا تكررها ؟ اللي بيجرب المجرب بيكون عقله مخرب.
بانت نواياه تجاهي ... و تعاظمت خيبة الأمل و الانكسار في داخلي .
تمنيت أن يغادر جبار المشفى فوجوده يتعبني ... و قد فعلها وغادر واعدا بالعودة إن قدر في اليوم التالي..
أما سهى فقد استمر ارتباكها .. كانت تحاول أن لا تنظر في عيني أبدا إذا أحست أنني أسلط نظراتي عليها و في اللحظة التي أتظاهر بتجاهلها تنظر إلي .. شيء ما كان يدور في قلبها وعقلها .. هي أختي التي أعرفها عن ظهر قلب ..عشنا عمرا سوية و لكن اليوم كأننا لا يعرف أحدنا الآخر.
حاولت طيلة المساء الاتصال بسما و لكن لا رد ... ثم رسالة " المتصل لا يمكنه أن يرد " أرسلت عشرات الرسائل النصية أستحثها على الرد و رفع السماعة و هي ممعنة في التجاهل ..بدأت أخترع سيناريوهات محتملة لكيفية العتاب اللازم .. و استوقفني خاطر في تلك اللحظة .. لمَ سأل جبار إن كانت تركتني سما بعد أن علمت بالانفجار؟ ما الذي حصل فعلا ؟ تعودت من أخي جبار منذ الطفولة أن لا أثق كثيرا بمصادره الإخبارية فقد تعود أن يخفي

الأجزاء التي يريدها من الحقيقة كي يصل إلى ما يريد .. ثم ما سر هذا الحبور الخفي المتشكل في ملامحه و نبرة صوته ؟ كلها أسئلة كبيرة لا أملك لها إجابات و لست أدري إن كانت ستلقى لها يوما ما من مراسٍ تستقر بها ... يكاد الصداع يأكل رأسي .. يعصف بروحي .. و سما صامتة .. ليتك فقط تردين يا حبيبتي فليس سواك من يستطيع ردم الهوة الكامنة بين روحي و الأمل .

بدأت أسلي نفسي بإحصاء موجودات الغرفة البيضاء .. سريران أحدهما أرقد أنا عليه و الآخر مرتب بعناية شديدة و نظيف تماما .. ثمة كراسٍ أربعة في طرف الغرفة و ثلاجة صغيرة .. ونافذة كبيرة لست أدري علام تطل حتى الآن ..و في جانبي العمود الخاص بكيس المصل المغذي المرتبط مباشرة بيدي اليسرى.. و بالقرب كرسي وضعته سهى ويبدو أن النوم غلبها فيما لم تستطع آلامي أن توقف الحيرة التي تجول في قلبي و القلق من غياب سما المفاجئ .. ليست هذه عادتها و أنا طفلها الذي اعتاد منها كل اهتمام و رعاية ... و بعد أن كابدت كل ما يمكن أن يقاسيه طفل فقد والدته لم أستطع كتم الصرخة في قلبي فسالت دموعي على وجهي .. و يبدو أن قدرتي على التحمل باتت في أدنى مستوياتها فلم أستطع كتم آهة حرى استيقظت سهى على أثر وقعها في أذنها .

-حبيبي جلال لا تحزن .. أنا هنا بقربك .. لن يحبك أحد في الكون كما أختك سهى..

-كأنك تلقين على مسامعي إعلانا ما !!

صمتت سهى و لم تحر جوابا .

-لماذا لا ترد سما على الهاتف ؟ أريد الآن أن اعرف إن كان هناك ما دار في غيابي .. سهى ماذا يجري ؟

أجابني ارتباك سهى ووجهها الذي أشاحت به بعيدا عني.

-حسنا لا أريدك أن تتكلمي بعد ..

بدأت سهى تبكي بصمت وانسحبت أنا لأتقوقع في داخلي كما أفعل دوما عندما تلوح نذر المصائب في حياتي، لكن لا هذه المرة ليست ككل مرة .. هذه المرة معي سما .. لن أستسلم للحزن و لن أكون إلا قويا بها تلك الحبيبة .. لو تردين يا سما لجلوت عن قلبي كل أحزانه و مخاوفه .. فقط ردي..

كانت سهى مقابلي تتحاشى النظر إلي كعادتها منذ أفقت من التخدير لكنها قامت من مكانها و حاولت تعديل الأغطية على السرير .. لمحتها عن كثب و عيناها منتفختان من البكاء .. يا لي من قاسٍ .. كيف أغضب سهى رفيقة عمري .. اقتربت لتعدل لي وسادتي فأمسكت بيدها و قبلتها ..

-سهى .. أنت لست غضبى مني أليس كذلك؟

- وهل أستطيع يا جلال ؟ أنت صديقي الذي ليس غيره .. ستعرف أنه ليس ثمة قلب أحبك مثلي.

- و سما أيضا ..

صمتت و تنهدت :

-و سما أيضا .. فقط أرح نفسك فأنت محتاج للنوم بعد كل التعب الذي ألم بك.

-لن أنام حتى أسمع صوت حبيبتي .

لم تتكلم وجلست على الكرسي في صمت ثم سرعان ما أغمضت عينيها.

كنت أعرف أنها ليست نائمة لكنها تحاول أن تشتري صمتي بادعائها النوم ..حاولت مرات ومرات و هاتف سما مقفل و هاتفها في البيت لا يرد.. كم أنا مغفل ! كيف نسيت أن أحصل على رقم هاتف أختها ؟ على الأقل كنت سأتصل بها الآن و أطمئن عليها.

قبيل الفجر سمعت حركة خفيفة عند الباب.. أصدر صريرا خافتا ثم دخل شخص ما إلى الغرفة ...كنت ماين النوم و الصحو .. اقترب مني .. قبلني على جبيني .. أعرفها تلك الرائحة .. رائحتها .. دون أن أضيء النور همست في أذنها : اشتقتك .. كيف تأخرت عني بهذا القدر ؟ ألا تعرفين أنني أحتاجك ؟

وضعت إصبعها على فمي واحتضنتني بقوة.. أحسست بدفء يغمرني و ينساب على كتفي نظرت في عينيها .. رأيت الدموع تغمر وجنتيها

-ظننت أنني لن أراك ثانية .. لم أجد طائرة متجهة إلى بغداد .. أتيت عن طريق البر بعد أن استخدمت كل وساطاتي و معارفي ليسمحوا لي بالقدوم .. مرت ساعات كأنها تسعة قرون .. لم أسافر أطول من هذا الطريق في عمري .. و عندما وصلت إلى هنا أخبروني أنك تجاوزت الخطر خارت قواي ولم أتمالك نفسي إلى أن وقعت و نقلوني إلى غرفة مجاورة لك منذ ساعتين و الآن فقط استطعت أن أمشي على قدمي .. أتيت بكل ما أقدر عليه من شوق..

-و لج أحبج يا قمر ..

أشرقت من بين دموعها ابتسامة طالما عشقتها ..

نسينا تماما أن سهى كانت في الغرفة .. فتحت عينيها باندهاش :

-سما أنت هنا؟ حمدا لله على سلامتك ... متى أتيت؟

انتبهت سما لوجود أختي في الغرفة و كأنما لم تدرك هذا من قبل .. احمرت وجنتاها وبقدر ما فاجأني هذا بقدر ما وددت لو ضممتها إلى صدري و هي في هذه الحال من العفوية ..

بادرت سما إلى أختي فقبلتها و عانقتها .. و استغربت للتغيير الكبير في استقبال أختي لسما عن المرة الأولى .. هذه المرة قابلتها بود و محبة .. هل حقا يا سهى أحببت حبيبتي أم أنك تتقنين فن ارتداء الأقنعة ؟ من أين تعلمت كل هذا الخبث يا سهى ؟

-جلال أنت الآن في يد أمينة .. سأغادر إلى البيت و أعود في الصباح .. و هاهي سما أولى مني بالبقاء إلى جانبك..

ابتسمت سما بود شاكر لسهى هذه اللفتة الرائعة.

-لو كنت أعلم أن حادثة كهذه تجعلك تأتين إلي على جناح السرعة لدبرتها لنفسي كل يوم ..

-كلفني كثيرا القدوم إلى هنا .. لم أحصل على موافقة السفر إلا بعد أن أبرزت عقد الزواج للسلطات الرسمية .

-يعني ؟

-زواجنا صار علنيا ..و لن أستغرب إن قاضاني زوجي السابق للحصول على الأطفال..

- أين هم الآن ؟

-عند أختي ..قلت لهم سآتي لكم بهدية كبيرة عند عودتي .. أتمنى أن يكونوا معي لينعموا بهديتي ..

-و الهدية ؟

- أغلى ما في العراق .. دعك من هذا الآن عليك أن تستريح .. أخبرني الطبيب أنك ستخرج من المشفى غدا صباحا طالما أن الرعاية الطبية موجودة في البيت ..
- أنا أسعد مريض في العالم .. لن أطلب الشفاء أبدا ..
- نم أيها الطفل المشاغب .. و الصباح رباح .

جلست على طرف السرير و أمسكت بيدي و سرعان ما غفوت و أنا أستشعر دفئها .. ربما هذا ما يسمونه الوطن ..

فتحت الستائر فتسلل نور الشمس إلى الغرفة .. رامقتها بكل محبة و هي توضب أشيائي في الحقيبة و تنتقل في الغرفة كفراشة أحضرت الربيع إلى عالمي .. حاولت أن أعتدل في جلستي لكنني شعرت بدوار منعني من الحركة فبقيت في مكاني مستمتعا بمراقبتها و هي لا تدري..

لم يكن قد مضى وقت طويل حين انتبهت إلى أنني أراقبها .. ابتسمت عيناها في محبة غامرة ..

-سأساعدك في ارتداء ملابسك فالسيارة تنتظرنا تحت لتقلنا إلى بيتنا .

"بيتنا " !! منذ الطفولة لم أشعر بوقع هذه الكلمة السحرية في أعماقي .. أحسست أن كل ما في البيت بات ينتظرني .. كل زاوية فيه صارت أثيرة إلى نفسي و سأحبها في كل مكان منه .. سأدعها

تلمس كل الأشياء فيه لعلي إن وضعت يدي في مكان لامس مكانا لامسته هي من قبل ..

كان اتكائي على كتفها و هي تساعدني في صعود الدرجات القليلة أمام الباب كفيلا بملئي بسعادة غامرة .. كم انتظرت هذه اللحظة ! هل ابتدأت حياتي الآن ؟

-عليك أن ترتاح فيما أقوم بترتيب بعض الأشياء..

-لا تتركيني لوحدي .. لا يحتاج أي شيء إلى ترتيب سوى أنا .. رتبيني أيتها الحبيبة

قبلتني في جبيني و جلست بجانبي و أخذت أصابعها تمسد لي شعري .. كانت أمي تأتي بنفس الحركة عندما أكون مريضا مما يزيد من عمق حاجتي لها و ها هو قلب سما يعبد لها طريق قلبي بعفويتها .. أحسست بدفئها و حنانها و نمت و هي تجلس بجانبي كطفل وجد أمه.

صحوت على صوت جلبة و أصوات مختلطة لأناس كثيرين .. كانت الغرفة مظلمة إلا من نور شاحب يصدر من أباجورة موضوعة بقرب السرير ..

بعد قليل فتح باب الغرف بهدوء و انسلت منه سما .. اقتربت من السرير ..

-جلال أنت صاحي؟

-كم الساعة سما ؟
-السابعة و النصف ... لديك زوار كثر و هم يريدون رؤيتك
-من ؟
-إخوتك و أقاربك ... هل أدعوهم ؟
-تعرفت بهم ؟ هل كل شيء على ما يرام ؟
- اطمئن كل شيء تمام.

أضاءت الغرفة و فتحت لهم الباب ..دخلوا جميعا إخوتي و زوجاتهم و أولادهم و تحلقوا حول السرير كان جبار ينظر بطريقة خبيثة كعادته .. بحثت عن سهى بينهم فلم أجدها ..

-أين سهى ؟
-ستأتي بعد قليل .. تعتني بالصغيرتين .. قال أحمد .

كانت سما قد أخذت موقعها كسيدة المنزل بكل انسيابية و ثقة بالنفس و كأنها تسكنه منذ زمن طويل .. كانت زوجتا أخويَّ تراقبانها بإعجاب ممزوج بالغيرة وأحيانا بالاستغراب من هذه المرأة التي احتلت البيت دون سابق إنذار .. و أنا موقن أنها لاحظت هذا لكنها رابطة الجأش و قررت في نفسي أن نناقش هذا الأمر حين نخلو لأنفسنا .

بدأ أخي جبار يتحدث عن الحادثة و الانفجار و مجريات التحقيق ..

-يجري التحقيق في الحادثة يا جلال .. أنا أعرف أنها مدبرة و لا بد أن لك أعداء في عملك أو حتى من خارج العمل ..هل فكرت بشيء ما ؟

تبادر إلى ذهني تهديد المدير في موضوع الصفقة التي لم أوافق على تمريرها .. لكنني لم أستطع أن أجيز فكرة أن يقتل إنسان أخاه في الوطن .. لم أستسغ أن يوجد على أرض الوطن من يستطيع هذا مهما كان الثمن .. كنت في غربتي أراقب الوطن و جراحاته و أحسست أن مكاني هنا في إعماره و بنائه من جديد و ما شككت لحظة بأن من يعيشون في حضنه لا يشاركونني ذات الهم . استبعدت تماما هذا الهاجس مع أنني أحس بغصة كبيرة لموت علي ذلك الإنسان الوفي الذي رأى السماء تعتصر نفسها بكاء عليه ، نعى نفسه قبل أن يموت ..إن تسامحت فيما يخصني كيف أتسامح فيما يخصه هو ؟ هل ضاع دمه هدرا ؟

لم أنتبه إلى خروج سما من الغرفة لبرهة من الوقت لكنها بعد قليل عادت و معها سهى .. كانت تحيطها بكتفيها كرفيقتين قديمتين ..

-ها قد أتت حبيبة القلب .. و ابتسمت .

مددت لها يدي كي تجلس بجانبي ... لمحت في عينيها دموعا .

همست بأذنها :

-لماذا تأخرتِ علي ؟

-ظننت أنه لم يعد لي من مكان ..
-و الآن ؟
-كسبت ما يمكن أن تكون صديقة .
كانت الأيام التي أمضيتها في رعاية سما و حبها من أجمل الأيام في عمري .. و خيل إلي أن الجنة لا تختلف كثيرا عن هذا .. غير أن سهى بدأت تقلل من زياراتها .. كانت تتذرع بعنايتها بالبيت و الطفلتين لكن في الحقيقة كانت تبتعد .. في البداية كنت محتاجا لوقت أمضيه مع سما لوحدي خصوصا أن زواجنا و ظروف لقائنا لم تكن طبيعية لكنني أفتقد سهى كذلك فهي ركن أساسي من حياتي ..
عشرة أيام مرت ..صرت قادرا على الحركة بمفردي لكنني كطفل صغير يحب الغنج تظاهرت بأنني مازلت محتاجا مساعدتها .. أوقن أنها يجب أن ترتب أمورها كي تطمئن على ولديها و لا بد أنها تغيبت عن العمل طويلا ولكن مجرد التفكير في سفرها كان يعصر قلبي .
هذا المساء أتى مديري لزيارتي .. لم أستطع طوال فترة الزيارة أن أتخلص من شكوكي تجاهه ..فقد هددني بشكل واضح و صريح و لم يعد للتخمينات من مكان ..
-متى سيسمح لك بالعودة للعمل؟

-ربما بعد يومين .

-حسنا تم نقلك من عملك الميداني في الإشراف إلى عمل إداري نظرا لوضعك الصحي..

يا له من لعين! وصل إلى ما كان يبتغيه .. يريد أن يقصيني حتى يتسنى له تمرير صفقاته المشبوهة .. أحسست في تلك اللحظة أن دماء علي راحت هدرا و أن دماء الشهداء العراقيين جفت و بردت نيرانها .. و أن العراق لم يعد في أوردته دماء ..

ابتلعت غيظي و غصتي و سكتت .. لست أدري لم سكتت و لماذا أنا هكذا دوما في موقف المراقب و الملاحظ و كأنني مؤرخ يراقب سير الأحداث و لا يقترب منها.. غير أنني هذه المرة في خضم الموضوع و مع هذا لم أستطيع أن أبدي ردة فعل واحدة كأنني لم أعد أستطيع الخروج من القالب الذي أعيش فيه .

دخلت سما إلى غرفة الضيوف .. اقتربت مني بحنان بالغ و مسحت الدموع التي انسابت على وجنتي بأصابعها الرقيقة ..

-ما بك جلال ؟ ما الخبر المحزن الذي أخبرك به هذا الرجل؟

-يبدو أن الوطن قد قتل حقا و أننا سنتقبل فيه العزاء منذ الآن .. دم علي راح .. و لا عزاء لأحد لأنه ليس ثمة معزون .. هل أخطأت يا سما بعودتي إلى هنا ؟

- لا يا جلال لا تقل هذا.. يوجد الكثير من السماسرة الذي يمكنهم بيع الوطن على قارعة الطريق دون أن تهتز قطرة دم في أوردتهم.. هم متفشون في جسد الوطن كسرطان .. لكن الحل ليس بأن نجتث أنفسنا من جسد الوطن فنحن الخلايا السليمة .. الحل أن نجتث الورم الخبيث ..و إن لم نستطع فعلينا أن نحاصره في كانتون و نكتب عليه: هنا يقبع الخائنون و البائعون و الطفيليون على جسد الوطن ..

ضمتني إلى صدرها و قالت :

-لم تخطئ في العودة إلى العراق .. و لولا هذا كيف كنا سنلتقي ؟

-هذا ما يعزيني حقا .

- جلال أريدك أن تكون قويا حتى لا ينشغل بالي عليك في غيابي.

-ياااه يا سما ... ستسافرين ؟

-مضطرة لهذا أريد أن أطمئن على الأولاد و عملي الذي تغيبت عنه طويلا

-سما .. أنت لا تريدين مغادرة بلدك أبدا ؟

- أريد فعلا أن أبقى حيث أنت حتى لو في مجاهل الغابات .. لكنني لا أستطيع أن أفارق أولادي و أنت تعرف احتياجهم لي .. كما أنني في ذات الوقت لا أملك تصريحا بإخراجهم معي في سفري ...

- تعرفين أنني أحبهم أيضا و أنني أتمنى أن يكونوا معنا في كل وقت ..هل نستطيع أن نفعل شيئا بهذا الموضوع ؟

-لا بد أنه شائك خصوصا إذا أصر والدهم على انتزاع حضانتهم .. و ربما أجده قد أقام علي هذه الدعوى عند عودتي فأنا لم أستطع الحضور إلى هنا قبل أن أصرح بالسبب لرئيسي في العمل .. بات الكل يعلم أنني تزوجت العراقي الذي زارني في الفندق في بغداد ..

-هل أنت نادمة ؟

-إذا ندمت أنت ..

-سما .. تعالي ننسى الآن كل شيء و سنفكر في هذا غدا .

كانت سما قادرة فعلا أن تنسيني كل ما يحيط بي في لحظات بدفئها و حنانها و أنوثتها الغامرة .. معها أنسى كل الكون و أتوحد بها ..

-لا أحب يا سما أن يداهمني النوم و أنت بقربي .. أحس أن النوم يغيبني عنك ..

- و إذا أغمضت عيني يا جلال أراك أمامي .. لا تغيب ..بحبك.

-هل حكيت لك عن معدان ؟

ارتكزت بمرفقيها على فخذي واضعة وجهها بين كفيها و قالت

-احكِ لي.

-هؤلاء قوم إذا عشقوا جنوا أو ماتوا حبا .

برقت الدمعة في عينيها ..

-و أنا منهم ..إني عشقتك و انتميت لهم..
-هل منهم إناث ؟
-لم يك من قبل .
-إذا سيكون !
استيقظت في الصباح على حركة في الصالة .. بحثت بيدي عن سما في موضع نومها فلم أجدها .. قمت من السرير بهدوء و على رؤوس أصابعي لأجدها ترتب المائدة .. تسللت رائحة القهوة إلى حواسي كلها فأنعشتها .
أتيت من خلفها أعابثها فالتفتت واضعة يدها على فمي ..
-لسنا وحدنا .. دعوت سهى للإفطار
سهى منذ أيام لم أرها .. و يبدو أنها تؤثر البقاء بعيدة في هذه الأيام ..
كانت قرب الثلاجة في المطبخ تساعد في تحضير طبق ما.
وقفت عند الباب .
-سهى .. اشتقتك.
ركضت نحوي و عانقتني و دموعنا تغمر وجنتينا.
كان صباحا يشبه الحلم ذلك الذي أمضيته بين سهى و سما الأقرب إلى قلبي لكن ثمة خاطرة سوداء تلح كثيرا على خاطري .. هل تكون سما قد أزمعت تحضيري لغيابها مجددا .. عندما غادرت

أختي قبل الظهر بقليل بادرت سما بالسؤال إن كانت تريد أن تسافر قريبا فأومأت برأسها المنكس دون أن تنظر في عيني .. أدركت هذا منذ الصباح فموعدي مع الحياة لا تخلفه أبدا تمنحني نتفة من سعادة و قنطاراً من ألم ...

سما حاولت أن تخفف عني وقع الغياب و ذكرتني بكل التفاصيل التي مرت بنا منذ لحظة اللقاء في مركز الايدز وحتى اللحظة الآنية و هي تحيط عنقي بذراعيها البضتين .. قدمت لي قهوتها التي أعشقها و أمضت الليل تشاركني سماع الموسيقى التي نهواها سويا و طلبت مني مشاهدة أرشيف الصور لدي و سألتني عن كل تفصيل مهما صغر في تلك الصور و كأنما كانت تريد أن تخبئني بكل تفاصيلي في تلافيف ذاكرتها ...

و قد نجحت إلى حد كبير في إخراجي من حالة التفكير المأساوية بغيابها المفروض ..و في الصباح بدأت تلملم أغراضها عطرها و حقيبة مكياجها و ملابسها ..هاتفها و آلة التصوير و دفترها الوردي الأثير لديها .. شرعت تجمعها في الحقيبة لكنني كنت كلما وضعت شيئا في جوف الحقيبة أستله بهدوء منها و أخفيه تحت ملاءة السرير أو أدسه تحت قميصي ..

-سما اتركي أشياءك هنا.

-إذا فتحت الخزانة سترى أنني لم أضع في الحقيبة سوى الأشياء الضرورية .

أحقا ؟ أحقا تقرؤني سما لهذه الدرجة .. فتحت باب دولابي فوجدت كل ملابسها مرتبة على الرف ..دمعت عيناي ..

تلك التي ستحتوي منها أكثر الأشياء التصاقا بها، أكثرها قربا إليها، و ستمضي برفقتها من غير أن يكون لي معها ذات الرحلة.تلك التي ترتبها أمامي و لا تعبأ بنظراتي المتساقطة على الأشياء ،على الملابس، و في طيات القمصان ، مبللة نسيجها بنحيبي الصامت ترمقني بعين شامتة كأنها انزوت كل تلك الأيام و أخفت كل ما تقدر على اكتنازه من إيلام لتقذفه في وجهي مرة واحدة مليئا بالحقد و الشماتة و التشفي

أعرف أن بضعة أيام أو أسابيع من الغياب الذي لا نملك له إيقافا سيجمدني في هذا المكان، أبحث في أركانه المظلمة و الباردة رغم حر الصيف عن صدى صوتها، رنة الضحك، آثار البكاء، عن ما يجمع بيننا ..

تلك التي كانت قابعة في طرف الغرفة انتقلت إلى الكرسي فاتحة شدقيها و أراها تسخر مني لتبتلع كل ما هو منها قريب، سأغلقها

بيدي ثم أقبض على يدها و أودعها لهفتي طائرة معها إلى دمشق ..

أتعرف ؟ لم أتعب قط في توضيب حقيبة سفر سوى هذه..

أغار منها سما ..

سألمس نظراتك الحانية على كل أشيائي ..

أتمنى أن تكون صورتي قد حفظت في جيب قلبكِ الداخلي فأنا أكره أن تلامس صفحة وجهي أقمشتها المبللة بدموعي

عدني أن تصبر ريثما آتيك .. سآتيك حتى لو عبرت نحو الضفة الأخرى المقابلة للحياة ثق بهذا

أنت توجعيني بهذا الكلام ..

تذكرت في تلك اللحظة توبة و ليلى عندما أقبلت على قبره تقول : السلام عليك يا توبة ما عرفت لك كذبة قط فأين وعدك إذ قلت : ولو أن ليلى الأخيلية سلمت علي و دوني تربة و صفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح ؟

فإذا بغراب يتحرك بالقرب من القبر لتسقط ليلى ميتة في مكانها فدفنوها معه في ذات القبر.

صعب أن تكلمني سما عن الموت و هي في ريعان صباها وفي لحظة تودعني بها إلى سفر لا أعلم مدته و ظروفه .. كان الوضع قاسيا علينا كلينا ..

اخترت لها ما تلبس وأقراطها وألبستها حذائها بيدي رغم رفضها وإصرارها وضحكتها التي تكركرها كما الشهد المصفى .. وغادرنا البيت نحو المطار ... كان أحمد وسهى في المقعد الأمامي بينما جلست مع سما في المقعد الخلفي ولم تفارق عيني عينيها طوال الطريق بينما نامت أصابع يدها الناعمة في حضن كفي .. ودعتها بقلب ينفطر ألما و بقيت معها حتى وضعت قدمها في الطائرة .. عدت إلى البيت بوضع بائس

هذه اللحظة من اكتمال الأشياء، من إلغاء تذاكر الانتظار المحجوزة على شرفات الشوق علقت صلاحيتها إلى أمد محدود أو غير محدود و السؤال المرعب كشر عن أنيابه: ماذا بعد؟

شعوري كان كالأم التي فقدت طفلها فجأة و لا تجد ما تملأ به وقتها و كأني بي كأم موسى

و" أضحى فؤاد أم موسى فارغا" و أنا أيضا !!

"و إن كادت لتبدي به "و أنا أيضا !!

"و ربطنا على قلبها" ؟؟ ومن يربط على قلبي ؟ من يربط على قلبي ؟ من يربط على قلبي سوى إيماني بك يا الله ؟

اتخذت طريقي إلى المغسلة .. وقفت مقابل المرآة و عزمت على الصلاة.. توضأت و اتجهت إلى الصالة ووقفت لأصلي وسط ذهول أختي ثم ابتسامتها التي اتسعت حتى أقصاها

غبت في ذلك العالم الروحاني وارتاحت نفسي كثيرا بعد هذه الصلة الربانية المباشرة .. ربط على قلبي في اللحظة التي اتجهت بها إليه

أتعرف أن هذه المرة الأولى التي أراك بها تصلي منذ عدت إلى العراق ؟

أتعرفين أنني أحسست كأنني أصلي للمرة الأولى في عمري ؟

الله يا سما كم سأحبك يا أختي !!-

قالتها بنبرة توحي فعلا بأنها نابعة من صميم القلب مما أثلج صدري و مع أنها ارتاحت كثيرا لهذا إلا أنها لم تغادرني تلك الليلة .. بل أنها اتخذت مقعدها في الصالة مكان نوم لها بينما كنت لا أغادر الكنبة التي اعتادت سما أن تجلس عليها ..

كلمتني سما عدة مرات لتطمئن علي و أخبرتني أن كل شيء على ما يرام لكنها فقط تريد أن تبقى على تواصل معي كي لا ينشغل بالها..

في الصباح رن هاتفي ..

-صباح الخير عمو أنا كتير بحبك.

نزل هذا الصوت على قلبي بردا و سلاما ..و لكأنه مسح أوجاع سنوات طويلة .. و كأنه نبتة خرافية سمقت و أزهرت في لحظة واحدة .. كم هذه الحبيبة تملك مفاتيح روحي و تعرف كيف تبقيني معلقا كنجمة ساهرة ترامقها من الأعالي تكلؤها بعين الرعاية و الانتظار .. كفيل صوت هذه الطفلة بأن يزرع لي حدائق ورد في تربة روحي المتشققة .. يهطل كمطر يروي يباس قلبي ... يمهد لي طريقا مستقبليا .. ملأني بالأمل و الحبور ..

عندما أقفلت الهاتف كنت أشعر بالجوع و بشهية كبيرة أفرحت أختي و جعلتها تجري نحو المطبخ لتعد لي الفطور .. في قرارة نفسها لا بد أنها تقول أنني تجاوزت أزمة غياب سما ..

غادرتني أختي إلى بيتها لتتم بعض الأمور و بقيت وحدي في المنزل .. لم أعد أشعر بوحدة بين جدرانه .. كنت أتأمل كل مكان وضعت سما يدها عليه أو تنفست من هواءه و أحس أنه مملوء بها .. تلك الحالة راودتني منذ أمد بعيد في أوروبا عندما كانت نينت تساكنني ذات البيت ..لكن طيف سما مختلف .. سما سكنت قلبي أولا ثم سكنت بيتي و لو إلى حين ..

اتصل بي مديري في الشركة و سألني إن كنت أستطيع مباشرة العمل .. لست أدري كيف تجاوزت كل شكوكي تجاهه و الخطوة اللعينة بإقصائي عن عملي الأساسي و قبلت أن أستأنف العمل في

اليوم التالي .. لعلي لم أعد أملك الكثير من العمر لأضيعه في المشاحنات و النزاع ... و عندما اتصلت بي سما ظهرا أخبرتها إنني سأذهب للعمل غدا صباحا ..كانت تخشى علي من التعب و أنا في طور النقاهة لكنني شرحت لها أنني لا أدري ماذا أفعل بفائض وقتي في غيابها .. وافقت على مضض ..

و أمضيت طول النهار رفقة العود الأثير و الذي منذ زمن طويل لم ألمس خشبه البني اللامع ..

كنت أفكر طول النهار أن سما الآن في عملها و برفقة صديقاتها و أصدقائها في العمل ..و أنهم يتبادلون الحديث و ربما النكات ..كلما طرا هذا على فكري التهبت جوانحي غيرة.. لست أدري كيف أستيقظ هذا الشرقي في قلبي و بدأ يلكزني بدبوسه في العمق ..أوليست سما امرأة يغار عليها ؟ لا أطيق أن أراها تتحدث مع غيري حتى و عن كان الحديث في صلب العمل .. كنت أتمنى لو ألبس طاقية الإخفاء و أجول هناك في بيتها في عملها لألكم بجسد غير مرئي كل إنسان يشم عطرها أو يصافح سمعه صوتها الرخيم .

عندما كلمتني في المساء كان الحديث اعتياديا مما يجري بيننا غير أنها باغتتني بسؤال:

-لماذا أشم رائحة كلام لم تقله مستلق بين كل كلمتين و فاصلة من كلامك ؟

-أحقا ؟
-هيا لا تراوغني .. ما الذي يدور في بالك ؟
-سما أنا أشعر بالغيرة .. هل هذا غلط ؟
-نعم غلط .. لأنني مملوءة بك .. ليس هناك مكان لذرة هواء.
أحسست بالغرور لبرهة .. و مع هذا لم أستطع طرد كل جحافل إحساس الغيرة المؤلم.
-بالمقابل سأقول أنك غدا ستقابل زميلاتك و زملائك فلا تنساني .
كم هي ماكرة تلك ال " سما " ترمي الكرة في ملعبي بكل حرفية و تنام مطمئنة في قلبي!
دخلت صباحا إلى الشركة و استقبلني الجميع بترحاب و محبة كبيرين و تجمع الكثير منهم في مكتبي الجديد و أصروا على تناول طعام الإفطار هنا احتفالا بعودتي و زواجي الذي لم يتسنَّ لهم أن يحتفلوا به كما يجب و إزاء هذه المشاعر الطيبة كنت خجلا جدا ، و لا أعرف كيف أرد لهم هذا الجميل و هذه السعادة التي قدموها لي مع خبز الإفطار وشاي المحبة.
لم يطل اجتماعهم لدي إذ انصرفوا بعد نصف ساعة إلى مكتبهم وكانت " وجدان " آخرهم .. كانت تقدم رجلا و تؤخر أخرى .. لكأنها تريد أن استبقيها ..
-وجدان ما بك؟

- أحبك .. أريدك أن تفهم هذا .

قذفت بجملتها هكذا و كأنها تحضرت لقولها دهورا ثم خرجت مسرعة و الدموع تنفرط من عينيها.

وجدان فتاة لطيفة و هادئة تكاد تكون العنصر الصامت دوما في كل الاجتماعات التي يعقدها الزملاء من أجل العمل أو غيره .. تكتفي بابتسامة هادئة وادعة و عطر مميز تتركه إذا غادرت المكان خلفه.. كنت أتوقع أن ما تخفيه تحت هذا الهدوء ربما يفجر براكين من الرغبات و الثورات و لكن ما خطر أبدا في بالي أن أكون محورها..شعرت بالحزن العميق فأنا أعرف مقدار الألم الذي يسببه حب صامت من طرف واحد . و أعرف أيضا أنني حيال هذا الموضوع سأبقى عاجزا طالما سما تسكنني.. في هذه اللحظة ألح على قلبي سؤال غريب يتمحور حول هل تتعرض سما في عملها لهذا النوع من الإغراءات و هي الأنثى الناضجة و الجذابة و الرائعة الحضور؟ و للغرابة أيضا أنه بقي مسيطرا على تفكيري بقية النهار و قسطا من الليل لدرجة أن سما انتبهت إلى أنني لست على طبيعتي المعتادة و كررت سؤالها عما يشغلني مرات عدة ..

في آخر الحديث قلت لها : سما أنا قلق عليك.

و كان ردها لا تقلق ما دمت تملؤني ..كانت أجوبتها دوما ذكية و كافية و عميقة إلى الدرجة التي تجعلني أعيش معها سائر النهار

.أفككها و أحللها و أرتب شفراتها لأكون منها نسيجا يتناسب مع فطنتها و نباهتها و يتناسب أيضا مع مقدار حبي لها. لكن الغيرة تبدأ بعد قليل بالنفخ في الجمر الكامن في قلبي لتشب ناره من جديد.

تمضي الأيام بطيئة متثاقلة و أنا أنتظر لقائي الآتي بسما و الذي لا أعرف متى سيكون و في أية ظروف.. و في الساعات التي يستعمرني شوقي لها بدرجة كبيرة أفكر بترك بلدي و الهجرة نحو تلك الشام لأكون في وطني الحقيقي قلب سما.

حتى أختي بدأت تبتعد عني شيئا فشيئا، صارت تنشغل ببيتها و أولادها كثيرا و كنت أبرر هذا لنفسي عندما تعترضها غصة خيبة الأمل بأن هذه هي طبيعة الحياة و ليس ثمة ثبات في مواقف الأشخاص و عواطفهم و اهتمامهم ، و في لحظات الحزن الشديد أتساءل إن كانت سما ستبتعد عني يوما ما تبعا لمد العواطف و جزرها.

بالمقابل كان عملي في الشركة و الذي اتخذ طابعا إداريا بحتا آخذا في الازدهار و بدأت تتوالى علي الدعوات لحضور المؤتمرات و الدورات التدريبية كنت أرفض معظمها لأنها تبعدني عن أقرب بقعة جغرافية قريبة من سما ..ربما أكون بمنتهى البلاهة و السذاجة لتفكيري بهذه الطريقة و لكنني طفل سما و لا أريد أن ابتعد عنها

قدر الإمكان .. أخبرتها بهذا مرات عدة و في كل مرة كانت تقول لي : لا أريدك أن تفكر بهذه الطريقة. عندما تكون ناجحا في عملك سيكون حتما نجاحا لي أيضا .. أعرف أنك بالمقابل تفكر بذات الطريقة، ألا تتمنى لي النجاح ؟ هكذا أفهم العلاقة الحبية.

و مرة أفلتت مني جملة أعرف يقينا أنها كانت تستقر في لاوعيي : سما أتمنى لو أنك تتركين العمل. صمتت قليلا ثم استأذنت لاضطرارها للذهاب. كنت أعرف أنني قلت ما لم يرق لها و أنها لم تكن تتوقعه مني ، أنا أيضا استغربت أن أخبرها بهذا خصوصا أنني لم أقدم لها أي شيء بعد و في كل مرة كانت هي التي تبادر و تقدم لي من قلبها وروحها و تفهمها المستمر. بقيت الفكرة بأنني جرحت مشاعرها أو صدمتها تؤرقني و تتعبني و تتجول أمام باب فكري و تطرق عليه بشدة في كل لحظة أحاول أن أتناساها بها، كنت جبانا و لم أعاود الاتصال بها مرة أخرى ذلك اليوم و كأن في داخلي ذلك الذي يريد أن يفرض ذكوريته عليها و على فكري أيضا .. كرهته جدا و بقي مسيطرا علي لوقت طويل ..بقيت عدة أيام دون أن أكلمها كتائهٍ في صحراء بإرادته و يريد أن يختبر مدى قدرته على مقاومة الجوع و العطش و بطيّ صفحة يوم و البدء باليوم الآتي تستهويني الفكرة أكثر ..قد يكون صحيحا أننا في اللحظة التي نصل بها إلى التوحد بالآخر نفعل ما بوسعنا لتدمير هذا

التوحد. في بعض الأحيان كنت أنسى أنني من أغضبها و أبدأ في إلقاء اللوم عليها لعدم اتصالها بي. كأنها هذه طبيعة ذكورية بحتة يتقاسمها رجال المشرق .
استيقظت صباحا على رنين الهاتف، قفزت من سريري و تناولت الهاتف..كأن كل التدريب الذي مارسته على روحي لتتحرر من أسر سحرها و الغيرة عليها تلاشى في رنة الهاتف..

كم هي تلقائيتها رائعة! كيف لا أحبها هذه الجنية الجميلة؟ خرجت لي من قمقم الحياة في أبهى زينتها و أنا بكل غباء أحاول أن أعيدها للقمقم
- سما أنا آسف، كانت هفوة .. زلة لسان يا حبيبتي.
- تعرف أن هذه الكلمة ستشفع لك عندي، لمَ لم تتصل بي ؟
-لمَ لم تتصلي أنتِ؟
-الله .. الله رمتني بدائها و انسلت ! طيب يا حبيبي كنت مريضة جدا .
- مريضة ؟ قولي بسرعة ما بك؟
-لن أخبرك حتى تصالحني.
- أحبك يا جنية ، فقط قولي و طمئني قلبي.
- حامل .. أنا حامل .

قالتها كطفلة صغيرة حصلت للتو على اللعبة الأجمل في محل الألعاب .

-سما ، كرري ما قلته حالا ..

- حامل ، أنا حامل و لقد تأكدت من هذا للتو .

-سآتيك حالا.

أغلقت السماعة و ارتديت ملابسي على عجل .. قابلت سهى عند الباب قبلتها و عانقتها وسط دهشتها الشديدة .. ركبت سيارتي دون أن أنتظر السائق .. وصلت إلى الشركة .. وصلت إلى مكتب المدير و استغرب من ابتسامتي العريضة .

أريد إجازة لمدة شهر على الأقل.

اتسعت ابتسامته بحجم وجهه:

-حسنا لك هذا . قل لي فقط ما سر ابتسامتك التي ستقفز من وجهك لتغمر العالم ؟

-زوجتي حامل .

-مبروك، و الإجازة لم؟

-سأسافر إليها في سورية ..

- هل يمكننا تكليفك بعمل هناك ؟

- نعم بالطبع لكن لا ترهقني كثيرا بطلباتك .

أنا أعرف أنه رحب بطلب إجازتي لأنه مازالت لدي بعض الأمور العالقة و التي لا يستطيع تمريرها بحضوري .. لكنني لن أبالي بعد الآن.

اتجهت مباشرة إلى مكتب الطيران و حجزت طائرة الرابعة عصرا المتجهة إلى دمشق و عدت إلى البيت لأخبر سهى بوجهتي و لأرتب بعض ملابسي في حقيبة ..وجمت و طفرت من عينها دمعة وقالت :

-ودعني يا أخي الوداع الأخير فأنا أعرف أنك لن تعود .

-لا يا سهى سأعود ، فقط سأكون بقرب سما لبعض الوقت.

- لن تعود أعرف هذا، أشعر به في قلبي منذ زمن، منذ تزوجت لم تعد بيننا، جسدك هنا و روحك تختال هناك ، على أي حال تسعدني سعادتك و لكن لا تنسانا أرجوك .

عندما عانقتني سهى أحسست أنها تريد أن تضغطني لأصبح منديلا تخبئه في جيبها عن كل العيون حتى عيونها ..مسحت دموعها بإصبعي وهمست في أذنها : تمني لي التوفيق

-الله يوفقك يا حبيبي.

قبلت الفتاتين الصغيرتين و سألت سهى أن تنتبه لطفلها القادم ..

هذه أطول رحلة طيران أقطعها في حياتي .. دهور طويلة أحسست أنها مرت بي و أنا في الطريق إليها .. و عندما أعلن قائد الطائرة

وصول الطائرة إلى مطار دمشق الدولي اضطرب كياني كله .. أحسست بدوخة بسيطة و خفق في القلب ..
موظف الجمارك سألني عما يمكن أن أصرح به في حقيبتي .
-ما أملكه موجود في دمشق ، أصرح بقلبي العاشق
ابتسم موظف الجمارك و رحب بي.
طلبت رقم سما و بدأت أحدثها و أحدثها و أحدثها و أمازحها و هي تكركر ضحكتها في قلبي .. وضعت يدي على جرس الباب .
-افتحي أيتها الجنية الصغيرة .
سمعتها صرختها مرتين في الهاتف و من عمق الباب المفتوح ..
أنت مو معقول .. ساعة تكلمني و تمازحني و أنت هنا ؟
مفاجأة جميلة؟ أم أنك لا ترغبين بها ؟
من ورائها أتت سيدة في الخمسين من عمرها ترتدي ثوباً بنياً فضفاضاً و طويلاً .
أهلا يا بني ، حمدا لله على سلامتك، تفضل ..لا تقفا على الباب طويلا .
دخلنا إلى الصالة حيث تلعب سهى الصغيرة مع أخيها هناك كومة كبيرة من الألعاب والمكعبات في الصالة وهما يلهوان بها ، كانا منهمكين إلى الدرجة التي لم يلحظا قدوم أحد ما .. سهى الصغيرة حانت منها التفاتة نحوي و قفزت

-عمو جلال اشتقتلك

ثم تبعها أخوها وجلسا على ركبتي .

-هل تريد أن تلعب معنا ؟

-نعم بكل سرور لكن أنا لا أعرف.

-أنا أعلمك يا عمو لكن لا تعذبني .

قدمت لي فاطمة شقيقة سما الكبرى القهوة و الكيك ثم استأذنت لإعداد العشاء .

كانت سما صامتة تحدق في وجهي بكل ما أمكنها من اشتياق.. أحسست بارتباكها..

اقتربت من أذني هامسة : أين ستنام الليلة ؟

-في حضنك ..

- أعرف لكن ليس في هذا البيت؟

- حجزت شقة قبل أن أغادر بغداد و لكني لا أعرف المنطقة و أنت من ستقودني إليها.

-اشتقتك ، اشتقتك و لا أصدق انك هنا، سأحضر بعض الملابس ريثما يجهز العشاء ونغادر بعده .

-حضري معك ملابس الأولاد لو سمحتِ.

توقفت قليلا ثم أومأت برأسها موافقة .

عادت أختها بعد قليل و طلبت مني أن لا نصطحب الأولاد معنا .. لكنني ألححت على حضورهم معنا .
هكذا ستكون سما مطمئنة أكثر .
سما تتركهم عندي دوما إذا كان لديها عمل أو سفر لا تشغل بالك بهم .
لكنني أريد أن أشعر أنني في دفء أسرة متكاملة ، هل يمكنني هذا ؟
يمكنك طبعا .
بعد العشاء غادرت أنا و سما و الأولاد ، أجلستهم في المقعد الخلفي و اتجهت نحو مقعد القيادة ، أمسكتها من يدها واستسلمت لي فخرجت ، فتحت لها الباب الآخر و ربطتها بحزام الأمان
-ليس بمقدور الحامل قيادة السيارة أيتها الطبيبة .
كانت تراقبني بشغف طول الطريق لكنها لا تحاول أن تنظر مباشرة إلى وجهي .. إلى أن وصلنا إلى الشقة التي حجزتها و التي لا أعلم عنها شيئا .. أدخلت سما الأطفال إلى غرفتهم و تمنت لهم ليلة سعيدة و عادت إلي فيما كنت أتابع بعض الأخبار بالتلفاز ..
-أخبار أخبار على طول .. أتعرف ما هو أحلى خبر ؟
- شنو ؟
- أخبرني قلبي أنك ستأتي.

لم أكن أدرك كم أنا بحاجة لدفء العائلة إلا في هذه الأيام التي أكملت فيها مع سما و الأولاد ما نقطع من أيام العسل التي قضيناها في بغداد.. أحسها هنا أكثر راحة لقربها من أطفالها ، و أيضا لأنها تحمل طفلي.

منذ عودتي و أنا أتمنى أن أحمل طفلك .. ربما تكون فرصة وحيدة بعد أن أصبحنا في منتصف العمر لكنها جميلة ..

سعيد أنا بها و من دونها ..كلهم أبنائي هل نسيت؟

هل ستحبهم كما تحب طفلك ؟

إياك أنت أن لا تفعلي.

كم ستبقى عندي؟ و ضحكت من قلبها و هي تقولها كأن لديها ضرائر و تريد أن تسال عن حصتها .

بقيت معي في البيت ثلاثة أيام وجدتها أما مثالية تعتني بصغارها و تحميهم و توفر لهم كل أسباب الرعاية و الدلال دون أن تنقص من عنايتها بي شيئا لدرجة أني شعرت أني طفلها الثالث أو الرابع و هذا شيء ملأني غرورا و في اليوم الرابع صحوت من نومي على حركتها الرشيقة في الغرفة كانت ترتدي ملابسها و ترتب شعرها ..

إلى أين ؟

تنسى دوما أن لدي عمل؟

كتمت غصة في قلبي و اطمأننت إلى أنها لن تقود السيارة و أن صديقتها ستتولى القيادة.. كانت ساعات من القلق و الانتظار و هذه المرة الأولى التي اختبر فيها الغيرة بهذا الشكل المؤلم ... لابد أن لديها أصدقاء في العمل و لا بد أنهم يطرون جمالها و رقتها و ثقافتها و أناقتها ... لا أستطيع التجرد من هذه الحالة الشرقية .. و لكن هل هي شرقية فقط؟ هل لأنني رجل؟ هل لأنني أحس أني امتلكتها ؟ سأصارحها عند عودتها بكل ما جال في خاطري و اعتقد أن سما ستتفهم ما أقول و تقدره لأنها تدرك كم أحبها.

عادت سما من عملها في الظهيرة و لدى فتح الباب تدافع الأطفال نحوي و طوقوني بمحبة

بعد الغداء مباشرة أخبرتني سما أن أختها تريد أن تأتي لتأخذ الأولاد في نزهة و ذلك ليتسنى لنا بعض الوقت منفردين ..

هل ستدعيني إلى فنجان قهوة ؟

أريد أن أتمشى معك في الطرقات القديمة هناك الأماكن لها روح مختلفة ألا تريد أن تجرب؟

معك أجرب الجحيم لو أردت.

كانت أنيقة و جميلة و تمشي بثقة و هذا ليس غريبا عليها فمنذ عرفتها و هي لا تختلف عن ذاتها أبدا . في زقاق ضيق تتدلى منه عرائش ياسمين تحدثني كم رأت هذا في حلمها بتفاصيله الصغيرة .. كنت

أتمنى لو يتجمد العالم عند هذه اللحظة و يدخل في نومته الأبدية لأكون فقط معها و لوحدي .

هي لحظة لا أدري كم كانت مدتها عندما ظهر أمامنا شاب وسيم أنيق و صافح سما و مما يبدو أنهما يعرفان بعضهما منذ سنوات طويلة .. عرفتني عليه سما و لست أدري إن كنت رددت السلام أو صافحته أم لا لأنني في داخلي كنت أعالج البركان الذي بدأ يقذف بحممه و يكوي جدر القلب حتى ظننت أنني سأحترق أولا قبل أن أنبس بكلمة .

اقترحت سما أن نعود إلى البيت و أوقن أن إحساسها قادها لتقترح هذا فلست أدري كم ظهر من آثار على وجهي و لست أذكر إن كنت قد أجبت بلا أو نعم لكنني وجدت نفسي في البيت

سما لم تتكلم بكلمة واحدة و شرعت في تحضير العشاء بينما تشاغلت أنا بمتابعة محطة إخبارية..كنت أفكر في مفتاح ما لنبدأ الحديث .. كنت متوجسا من العتاب و نقاش قد يقود إلى نهايات لا أحبها مع سما ... و لكنها أتت بعد قليل مشرقة الوجه و قد رفعت شعرها إلى الوراء كما أحبه و قالت العشاء جاهز.

تفاديت أن أثير أي حديث يشير إلى ما حدث مني و كأنها تواطأت معي على عدم فتح الحديث في الموضوع..

انتهت الإجازة و عدت مثقلا بشعور الذنب و الغيرة الجامحة و أدرك أن سما تعرف هذا جيدا .. حاولت أن تطمئنني حين وداعها و هي تقول أنها سترى ما يمكنها فعله كي تلتحق بي.
لكن لا تأتي في جنح الليل و دون إخباري .. عندك سوابق.
قلتها و أنا أتصنع الضحك في لحظة وداع.
قبل أن تصبح سما زوجتي كنت ملكا متوجا و الآن حارس أنا لهذه المملكة .. ربما علي أن أفكر في مسيرة حياتي كلها لعل هذا الجانب مني المسؤول عن كثير من هزائمي و خيباتي. لكن لماذا لم تثر سما ؟ لماذا لم تعلق ؟ لم تقل شيئا بخصوص هذا الموضوع ؟ لم تفتحه مطلقا ؟ هل تحبني لهذه الدرجة التي تتغاضى فيها عما يزعجها من أجلي؟
عند مغادرتي للطائرة رن هاتفي الجوال :
-حبيبي ..أحب غيرتك.. لكن ما دمت تملؤني طمن بالك.
لماذا يا سما تنتظرين وقتا لتقولي هذا الكلام الذي من شأنه أن يريح قلبي المتعب بك ؟
في بيتي وجدت عائلتي برمتها في استقبالي.. اندفعت سهى و عانقتني .. كنت متشوقا لرؤية الجميع ..و سهى التي ازدادات جمالا و بطنها بدا يظهر تكوره ..

في المساء أتى عمي الكبير إلى البيت .. لم تكن زيارته مطمئنة فنحن قد تعودنا زياراته في الملمات و النوائب و عند نعي أحد أفراد العائلة و كانت زياراته تتم بعد الفجر بقليل لكن زيارته هذه كانت مريبة .
طلب الاختلاء بي في ركن منفرد ..
سمعت أنك تزوجت.
نعم.
لم لم تخبرنا ؟ كيف تم الزواج ؟ هل انسلخت عن العائلة ؟ هل أنستك أوروبا عاداتنا و تقاليدنا ؟
لا يا عمي كل ما في الأمر تم بطريقة سريعة لان زوجتي كانت على سفر.
هذا أمر آخر اعترض عليه ..هل خلت بلادنا و عشيرتنا من ذوات الحسب و الجمال ؟
و المطلوب ؟
تخلص من هذا الزواج .. و بعدها نتكلم.
السبب؟
خروجك عن تقاليد العائلة .
زوجتي حامل و لو لم تكن حاملا لن أتركها لأنها الإنسانة الوحيدة التي تتناغم مع روحي و قلبي .
لن تستقبلها العائلة.

أية عائلة يا عمي ؟ نراك فقط في ظروف معينة و مأساوية ..إخوتي استقبلوها و أحبوها.

إخوتك هم من طلب مني محادثتك في هذا الموضوع ..خصوصا بعد أن عرفوا أن زوجتك حامل.

إخوتي؟ أسقط في يدي من المفاجأة.

عمي أنا لن أطلق زوجتي سواء قبلتم بها أم لا ..

لا تنتظر منا إذن أن نبني معك أي علاقات من الآن فصاعدا .

خرج عمي من الغرفة مغضبا و ربما في قرارة نفسه يتمنى لو أني تبعته لأعلن له أنني سأذعن لرغبته .. لم عباءته و التفت مرة أخيرة ثم صفق الباب وراءه

إخوتي أيضا بدأوا يخرجون من البيت دون أن يلقوا علي التحية و بقيت سهى لوحدها في الصالة.

طفرت الدموع من عيني .

لا تريدون مني أن ابني بيتا ؟ لا تريدون أن أتزوج ؟ أنا الذي بنيت لكم جميعا بيوتكم ؟ تنتظرون أن أبقى أعزب كل الدهر لتكونوا ورثتي ؟ خذوا ما تريدون مني واتركوني أعش ..

بكت سهى و لم تنبس ببنت شفة ..حيرني بكاءها و صمتها الذي لا أعرف إلى أين تتجه بوصلته

غادرتني إلى بيتها دون تحية أيضا .

أمضيت الليل مسهدا و حاولت سما الاتصال بي مرات عدة و أنا أتجاهل اتصالها .. فلأدعها تقلق من عدم ردي أفضل من قلقها إذا سمعت صوتي المبحوح لكثرة البكاء .. أعلم أن هذا سيؤثر على نفسيتها و على حملها و قد تأتي بحركة مجنونة تعرض طفلنا للأذى ..
في الصباح غادرت إلى عملي دون أن تأتي سهى لتعد لي الإفطار و في حقيقة الأمر كنت أتوقع أن تأتي بمقتضى عاطفتها الكبيرة لكنها لم تأتِ .. غادرت البيت و في حلقي غصة كبيرة .
في بداية الأمر استقبلني المدير ببشاشة و ترحاب و أتى الزملاء ليسلموا علي و كانت وجدان معهم ..
وجدان كانت من زاوية بعيد تراقبني و في المرات التي تصطدم عيناي بعينيها ألمح فيهما لوما كبيرا و رجاء.
انصرف الزملاء و بقيت وجدان.
لم أنت حزين؟
ما أدراك أنني حزين ؟
قرأت في عينيك.
شكرا لمشاعرك ..لدي بعض المنغصات .
عائلية؟
نعم .
هل ستقول لي ؟

أعتذر أنا لا أحب طرح مشاكلي للعموم.
هل أنا من العموم ؟
أنت صديقة غالية لكن مشاكلي لنفسي.
إذا احتجت لي تعرف كيف تجدني.
انصرفت من المكتب دون أن تلتفت .. و خلفت وراءها جملة ثقيلة الوقع.
ما معنى إنني أن احتجتها أعرف كيف سأجدها ؟ و كأن هذا الكلام يوحي أن ما بيننا علاقة طويلة الأمد.. لكنني لا أنكر أن سؤالها عن حزني لامس قلبي برقة شديدة و كدت أنفجر بالبكاء لولا بقية من تصبر ..
انغمست في العمل المتراكم بسبب غيابي و بدأت أستعيد توازني .. كلمت سما القلقة دوما .. لم أشعر بمرور الوقت إلا عندما حضر المستخدم ليقول أن الجميع غادروا مكاتبهم فيما عداي
عدت إلى البيت لأجده خاويا من سهى و ضوضاء أطفالها و رائحة الطعام ..عرفت أنها لم تأت .. ذهبت إليها فتحت لي الباب بعينين محتقنتين بالبكاء.
-سهى هل أنت مريضة ؟
- أنا حزينة .. لم أعد أعني لك شيئا .. أخذتك مني سما و انتهى الأمر.

-هيا سهى لا تكوني أنانية .. أنت تعيشين في بيتك مع زوجك و أطفالك مستقرة و هانئة هل تريدين أن أبقى راهبا؟ ألا تريدين طفلا لأخيك؟ ثم ألم تقولي أنك أحببت سما و أصبحتما صديقتين.

-لكن إخوتك يقولون..

- دعيهم يقولون ..سيقاطعونني لفترة ثم يعودون

-لن يعودوا .. اتفقوا أنك إن لم تطلقها سيعلنون عليك حصارا اجتماعيا حتى أنا أخبروني إما معهم أو معك؟

-و أنت ماذا اخترت؟

- أنا بين نارين.

- إذا خليكي في نارك .. كنت أتوقع أنني أن عدت من المهجر سأجد لي عائلة تغنيني عن الحيطان الباردة و أشباح الغربة المرعبة .. يبدو أنها كانت تشفق علي أكثر منكم .. الآن أدرك استقبالكم الباهت لي عندما عدت من المهجر..كلكم تفكرون بذات الطريقة .. ربما كنتم تفضلون لو مت فعلا في حادثة التفجير .. أعدك سأعود من حيث أتيت و هذه المرة دون عنوان أو رقم هاتف .. ليس هذا وطني .. الوطن في القلب.. في قلوب من يحبنا حقا .

غادرت البيت و أنا أبكي ..دخلت بيتي و أغلقت الباب لم أجد رغبة بإضاءة المنزل و لا بالطعام و لا بالرد على الهواتف الكثيرة و الرسائل .. لم أجد رغبة لدي في التحرك من مكاني و ربما نمت على

وضعيتي و أنا جالس على الكنبة في صالة باتت حيطانها أكثر بردا من شقة قابعة في شمال العالم.

لست أدري لم تداعت إلى ذهني نينت و ضوضاؤها و محبتها .. منال و أبوها ذو الكرش الكبير .. ربما يكون قد توفي الآن .. والدتي أيضا أتت في كرنفال الذاكرة حزينة و لم تكلمني أبدا .. وغادرت بصمت أيضا .. سما هي الوحيدة التي لم تأت صورتها في هذه التداعيات الغريبة و كنت خجلا من حضورها في داخلي لأنني لم أتذكرها .. تساءلت كيف يتأتى لي أن أنسى أجمل مخلوق في حياتي ووجدت تفسيرا وحيدا أنها الإنسان الحقيقي الوحيد في مسيرة حياتي المتعبة

وجدت نفسي أمشي بثقل باتجاه باب بيتي و لست متأكدا أن كنت سمعت رنين جرس الباب لكنني وجدت نفسي افتحه لأجد أمامي وجدان!

عانقتني و ضممتها إلى صدري بقوة كبيرة و كأنها كانت معي لسنوات طويلة. كنت مستغربا

-أعرف أنك حزين و متعب لذلك أتيتك .. لن تجد من يحبك في هذا الكون كما أحببتك.

في الصباح وجدت ورقة على الكرسي المقابل لسريري مكتوب عليها : أشكرك وجدان .

ارتديت ملابسي و خرجت من البيت ملسوعا .. لا أستطيع أن أتذكر ما الذي حصل بالضبط لكنني كنت مثقلا بمرارة الاحتمالية أن أكون قد خنت سما ..

كلمة الخيانة لا أعترف بها و لا أحبها فأنا أقدر أننا ببشريتنا قد يعترينا ضعف و انهيار في حالات كثيرة .. كنت خائفا من مواجهة وجدان و أن أرفع عيني في وجهها فقد انتصرت علي أخيرا و نالت ما أرادته في غفلة من عواطفي المتأججة تجاه سما .

طلبت فنجان قهوة من عامل البوفيه و سألته بطريقة غير مباشرة عن الموظفين و منهم وجدان .. أخبرني أنها مريضة و اتصلت تعتذر عن الدوام اليوم .. بقدر ما أراحني هذا التصرف منها بقدر ما أتعبني وأنا أحاول أن أسترجع ما جرى دون فائدة و كأن ذاكرتي نسيت أن تسجل فقرة ما في دفتر الأمس.

كنت خجلا من سما في هذه اللحظة و كنت أستقبل رسائلها و مكالماتها بدون رد فقد كنت مدركا أن كلامي سيشي بي لديها ..و خصوصا أنني لا أعرف حقا ما الذي حصل مهما اعتصرت ذاكرتي وعقلي.

بقيت تحت وطأة ذنبي الكبير وخجلي الذي يتفاقم في داخلي من كل الاتجاهات ودوما سما في مقدمة الجمهرة اللوامة .. الغريب أنني لم أستطع استذكار سوى ابتسامتها وحنانها و احتوائها الكبير.. هل أنا

حقا لا أملك مناعة داخلية و هل ما طلبته من سما لم أستطع أنا عند أول محك أن ألتزم به ؟ و كأن الحياة تلقنني درسا آخر بألا أطلق على أحد ما حكما أخلاقيا حتى لو في سري لأنني سأكون أول الممتحنين به و أول الراسبين .

أمضيت نهارات من الجحيم المقيم في ذاتي ووجدان ممعنة في غيابها بحجة المرض و سما على الطرف الآخر تحاول أن تعرف ما الذي جرى لي و إخوتي ممعنون في عداوتهم لي ..عزلة قاسية تلك التي بت أعيش في إطارها .

أحاول أن أبحث عن مخرج منها بانهماكي في العمل.. و بات يقينا لدي عند استعراض شريط الذاكرة أن نجاحي في دراستي و عملي لم يكن إلا انعكاسا لأزمات مرت بحياتي و كل نجاح أحققه على صعيد العمل يكون على خلفية هزيمة كبيرة أو خيبة كبيرة أو طعنة كبيرة..

سما تحس أنني بانشغالي عنها أعاني ألما ما و تلح يوميا على معرفة مصدر أحزاني و أنا سادر في صمتي ..و خجلي منها . و هي تحاول أن تحتويني بعذوبة لا مثيل لها في تاريخ حياتي مجتمعة .

وجدت نفس أمام قبر والدتي ووجدت نفسي أبثها اشتياقي و أروي لها أخباري و أنصتت لي كما كانت تنصت من قبل .. جلست

بالقرب منها متربعا و تنازعتني رغبة بالبقاء هنا إلى الأبد لولا أن هبوط الليل و اتصالات سما الكثيرة ألحت علي بالعودة.

-جلال أين كنت

-كنت في الزيارة

-رحمها الله ..هل أبلغتها سلامي ؟

يا لها من رائعة تلك الـ" سما " حتى و هي تدللني مختلفة جدا لدى عودتي نازعتني رغبة قوية للصلاة .. سألت نفسي هل سيقبلني الرب و أنا مثقل بخياتني ؟ هل سيغفر لي ؟

الصلاة التي أنساها في زحمة حياتي كم ترتاح لها نفسي.. أحس نفسي مغسولا ..تعتريني أشواق لا أستطيع تحديد كنهها تعتصر الدموع في مآقي فتفيض لتغسل وجهي و قلبي .

نمت عميقا كما لم أنم في الأيام السابقة و عندما صحوت كنت متجددا مصرا على أن أفتح صفحة بيضاء ناصعة سلاحا في وجه السواد الذي غمرني ..

أول ما فعلته كان هو الاتصال بسما.. كدت أرى فرحتها تقفز من قلبها و هي تسمع صوتي مرحا :

-ممكن نتعرف يا حلوة؟

-أنا سوسو..

قالتها بغنج و ضحكت و سكبت ضحكتها في قلبي..خطر في بالي للحظة أنها ربما تعرف ما اقترفته بحقها لكنني طردت الخاطر بعيدا لئلا يفسد علي ما اعتزمته.

لم يعد يعنيني ابتعاد سهى التدريجي عني و لا هجران إخوتي لي . كنت أود الاحتفاء قدر الإمكان بالسلام الذي توصلت إليه داخليا مع أن إحساسي المتعاظم بأن هذه الأرض لا تريدني يغمو يوما بعد يوم .. و للمرة الأولى مذ عرفت سما لم أعد أحكي بصراحتي المعهودة .. باتت لدي أمور أخفيها عنها وكنت متألما من هذا في البداية و خجلا أيضا لكنني مع مرور الوقت بدأت أجد المبررات ثم تصالحت مع الفكرة و أنشأت معها نظرية خاصة بها وقد لا أكون الوحيد الذي توصل إلى ذات النظرية و لكن من يكتشفها لا يبوح بها لأنها تحمل في طياتها دليل إدانته بخرق في عهد ما زوجي أو عاطفي..

نظريتي مؤداها أنني و إن كنت أحبها فلا بأس بأن أحتفظ لفرديتي بمساحة أمان .. تستطيع فيها ذاتي أن تتنفس .. و لكن هناك سؤال غريب ما زال ينغص علي اكتشافي أحيانا .. هل توصلت سما لذات النظرية من طرفها ؟ و عند بداية استبداد الهواجس بي أطردها بأن أقنع نفسي بوجوب الإنصاف و العدل حتى في هذه الأمور .

كنت قلقا جدا على حمل سما والإنهاك الذي بات واضحا من صوتها .. طلبت منها أن تترك العمل ووعدتني أنها ستمنح نفسها إجازة بعد أن تنهي التزاماتها قريبا.

عادت وجدان للعمل بوجه غير الذي عرفته.. كانت شاحبة و أكثر نحولا و انكسارا .. لم أجرؤ أن أنظر إليها عندما مرت من أمامي .. ولكنني ما إن دخلت مكتبي حتى وجدتها هناك تقف على استحياء .

-لم يحصل شيء ليلتها .

هكذا بادرتني بالكلام:

-كنت محتاجا لحنان إنسان آخر لكنني أدركت كم هي تملؤك .. كنت تتكلم و تتصرف كما لو أنك تحت تأثير مخدر .. و عبثا حاولت استمالتك و لكنك غرقت في نوم عميق.

-لماذا غبت كل هذه الفترة؟

-كنت أتصور أنني سأمتلك قلبك في لحظة احتياج و هذا ما آلمني أنني في هذه اللحظة أيضا لم أستطع .

-وجدان أنت تستحقين من هو أفضل مني ..

كنت أود شكرها لأنها سلمتني صك براءة و لكن في داخلي شيء يقول أنني لست بريئا كليا

و لم أدرك متى انصرفت .. و لست أذكر إن كنت قد شكرتها حقا أم لا!!

عندما وضعت المفتاح في الباب عاودني الألم ثانية وأنا أوقن أنني لن أجد سهى في البيت و أنني محروم من أطفالها و شغبهم و ضوضائهم المحببة ..و نازعتني الرغبة بالذهاب إليها لكنني لم أفعل و وطنت نفسي على تعود الوحدة والنبذ ريثما أنهي وثائق السفر.

لم تكن سما مرتاحة لهذا القرار، كانت تفضل أن تعيش في دمشق أو بغداد أو ما بينهما لكنها لا تحبذ البقاء في دولة أجنبية . أتفهم جيدا رغبتها فهي لا تريد أن تبتعد عن أطفالها حتى و إن انتزعت منها حضانتهم.. و في الحقيقة كلما تذكرت أن هذا قد يحدث شعرت بغيم كثيف يتراكم على قلبي فأنا أيضا تعلقت بهم و لا تحضرني صورتها أبدا دون أطفالها. كل هذه الأفكار بدأت تتزاحم في رأسي و تتنازع و لكن السفر بات ضروريا خصوصا بعد ما بدر من إخوتي و من مديري الذي ظهر تهديده جهرا و أنا أعلم أنه لن يتورع عن تدبير القتل إن أيقن تماما أنني لن أستجيب لرغبته.

الوطن تبادل الأدوار ما بين هنا و هناك .. كان الوطن يعادل الـ " هناك " و هو الآن "هنا".. كأننا نمتلك براعة كبيرة في تجميل "هناك" و تزيينه و ترتيبه و ننسى أننا في اللحظة التي نعانقه بها يصبح " هنا " بكل قبحه و الألم الذي يحتويه و رفضنا الكبير له ..

كنت أبكي شوقا للوطن و ها أنا ذا أبكي حنينا لشقة باردة في أقصى الشمال..أليست طبيعتنا البشرية مصنوعة من تمرد؟
هل هو قدرنا أن نعيش في المنافي لنشعر أننا نحتاج الوطن و عندما نرتمي في أحضانه نزعم أننا الآن دخلنا التيه؟
أحس أن رأسي متعب من التفكير و أحس أنه يورط معه قلبي و أن اللغة متواطئة معهما فلا نسيج عندها يستطيع أن يفصل على مقاس أوجاعي.
فتحت التلفزيون لأجدني أمام خبر عاجل .. حرب أخرى تندلع و هذه المرة في البقعة الصغيرة الواقعة مابين لبنان و فلسطين المحتلة .. قصف على الضاحية الجنوبية في لبنان، شهداء و مهجرون وجرحى .. تسمرت أمام الشاشة لفترة طويلة و أنا أتابع من محطة لأخرى ضجيج وقصف و فوضى .. صراخ و عويل بشري و عويل آخر لسيارات الإسعاف و صفارات الإنذار .. يتذرعون بسبب معلن لكنه غير كافٍ وغير منطقي و كأنهم إذ يشنون حربا يحتاجون إلى مبرر و تاريخهم مليء بالسوابق المماثلة لها في السبب و الدوافع و الأدوات و الدمار الذي يخلفونه وراءهم ..هذه الأمة التي ما تعبت من استقبال الكوارث و الآلام.. و كأنها ما قدر لها أن ترتاح ..

سما كانت محتاجة جدا عندما كلمتني.. أحسست بأنها في داخلها تختبر الخوف مرة أخرى ..هدئي من روعك حبيبتي سيكون الأمر بخير هؤلاء قوم لا يخافون إلا الله و سينصرهم .

أعلم أنهم لا يخافون إلا الله و لكن هناك ترتيبات ستجري في الخفاء عندي يقين بهذا .. فسر لي كيف احتلت بغداد؟ كانوا أيضا قوما لا يخشون إلا الله .

ليس أمامنا إلا الصبر و الدعاء لهم.

بإمكاننا أن نفعل الكثير لو أردنا .

سما أنت حامل و متعبة أرجوك لا تقومي بأية مغامرات مجنونة .

تخشى على الطفل ؟

بل عليك أنت أولا .. ليست المرة الأولى التي أخبرك فيها بهذا الأمر .. أخشى على الطفل و أخشى على الأولاد كلهم .

لا تخف لن يكون بمقدوري عمل شيء .. اطمئن.

عندما غادرني صوت سما لم أستطع إسكات الهواجس التي بدأت تثرثر حول أذني ثم أسقطتها قلقا في قلبي .. كان ثقيلا جدا لدرجة أنني تصورت أنه سيزهق أنفاسي في اللحظة التالية. ..حاولت كثيرا أن أتوصل مع هواجسي إلى تسوية ما كي تخفف ضغطها على أعصابي لكن شروطها مجحفة و عسيرة التحقيق .. هذا هو العجز الذي يطل برأسه ليقول لي أنت كائن محدود القدرات .

في الصباح طلبت إجازة من أجل سفر عاجل كلن المدير رفضها و من نظراته الذئبية عرفت أن التسوية ستمر عن طريق مغادرتي نهائيا للشركة .. كنت أعلم أن أوراقي في أوروبا باتت قاب قوسين أو أدنى و لكنني كنت أؤجل خطوة الاستقالة من هذه الشركة إلى اللحظة التي أقبض بها في يدي التأشيرة .. كان المدير يريدني أن أتوسل له كي يضع شروطه و يمرر من خلالها مخططه و قد أقسمت بيني و بين نفسي أن لا يمر أي خرق يؤذي الوطن عن طريقي ..

تناولت ورقة بيضاء و كتبت استقالتي و قدمتها للمدير ..و لم يتردد لحظة واحدة إذ وقعها على الفور و كأنه كان ينتظر هذا دهرا.. في لحظة تصور عقلي المتعب أنه ربما يكون هذا الهجوم على لبنان من قبل إسرائيل مدبرا من قبل مديري و في لحظة أخرى حنقت على سما لأنها دوما تبقيني قلقا عليها و خائفا من ردات فعلها و حماسها الزائد ..

-عندما ألتقيها سأكلمها عن هذا الذي تفعله بي ..علينا دوما أن نحكي للآخر عما نحس به من حنق و ألم تجاهه ليس لأننا نريد الشجار و لكن لأن هذا يمنع تراكم الحنق في ممرات القلب ليقضي على الحب بالجلطة القاضية.

لم أع بالضبط متى كنت في المطار و متى وضعت قدمي في الطائرة و متى وصلت إلى دمشق ..و متى طرقت باب سما .. فتحت لي أختها فاطمة .. أحسست من تحيتها بارتباكها ..

-أين سما؟

-ستأتي بعد قليل .

أتى الأولاد وعانقوني كما لو كانوا فعلا ينتظرون أن آتي لهم .. أثلجت صدري هذه المحبة التي غمروني بها و بدأ حنقي على سما يتلاشى شيئا فشيئا و أنا أرى أنها زرعت محبتي في قلب أولادها .

مضى أكثر من ساعتين أخريين و لم تأت سما .. كانت فاطمة تدخل إلى الصالة تجالسني بعض الوقت و تقدم الشاي أو العصير ، تتكلم في أمور يومية ثم تخرج .

-أين هي سما ؟ لم تأخرت ؟

-كلمها .

اتصلت بها كان هاتفها مغلقا أو خارج الخدمة ..

-يبدو أنها أغلقت هاتفها .

-إذا لقد عبروا الحدود.

-أية حدود؟

-الحدود السورية اللبنانية.

-ماذا تفعل هناك ؟

-ذهبت مع فرق الإغاثة الطبية التي أرسلتها سورية لكنها أكدت لي أن عملها سيكون على الحدود و ليس في داخل لبنان.
أمضيت ساعات طويلة و أنا أضع سيناريوهات محتملة لما يمكن أن يحدث لكن الضغط على قلبي ازداد وطأة .. أحسست بالعطش لكنني لم أتناول كوب الماء أمامي فإذا فقدت سما لا رغبة لي بحياتي بعدها .
كنت أحاول تهدئة روعي لكن هواجسي لم تتركني .. في كل مرة أبعد شبح الخوف عني يتلو على مسامع قلبي بيانا نهائيا .
قرب التاسعة مساءا رن هاتف أختها و كانت سما تطمئنها أنها بخير و لكن القصف همجي و لا يفرق بين بيت و منشأة عسكرية أو مدنية أو جامع و كنيسة .
أغلق الخط على الطرف الآخر فجأة قبل أن تتمكن أختها من إعلامها بمجيئي. لم يكن هاتفها مطمئنا بالقدر الكافي بل على العكس ساعد في ترسيخ هواجسي ووساوسي .. احتضنت الطفلين الذين ربما لا يعرفان ما يدور حولهما أو أنهما قد اعتادا على جرأة والدتهما و ردات فعلها غير المتوقعة ..
كان ما حكت عنه سما ليس غريبا فهو أمامنا على الشاشة .. دمار و قصف و لست أدري من سيدفع فاتورة هذه الهمجية الوقحة التي منذ ستون عاما لا يردونها ..

انتبهت إلى أن الوقت تأخر و قد أسبب لفاطمة إحراجا ببقائي لهذه الفترة الطويلة في بيتها فاستأذنت منها و غادرت إلى الفندق .. كنت أود أن أكلم أي إنسان لعل هواجسي تكف عن ثرثرتها لكنني في نفس الوقت لا رغبة لي بالحديث..أحسست أني على حافة الوقت حقا و تمنيت لو كانت معي في هذه اللحظة نينت الصخابة المشاغبة .. صرت أراقب البزوغ التدريجي للضوء و للحظة شغلني هذا عما أشعر به من خوف و غرقت في النوم.

حال الإفاقة اتصلت بفاطمة و طمأنتني أنها في طريق العودة و أنها بخير.

طرت إليهم ..اقترحت علي فاطمة أن أتناول الإفطار لكنني رفضت و اكتفيت بطلب فنجان قهوة ..لكن يبدو أن التعب قد نال مني فنمت مرة أخرى .. أحسست بيدين ناعمتين أعرف ملمسها تطوقان وجهي .. فتحت عيني لأرى عينيها .. خفت أن يكون هذا حلما فركت عيني جيدا لأجد أنها هي ..كانت بطنها مستديرة بشكل يزيدها جمالا و إثارة .

-هل أنت متعب ؟

-هل أنتِ متعبة؟

-نعم.

-نعم .

ضحكنا سويا لهذا الحوار الغريب.
جلست تنتظر حضور الطعام و لكنني من بعيد أراقبها تخفي بعضا من ألم لا يلبث أن يشي به وجهها في زلات تعابير لم تستطع كبتها .
كانت متعبة حقا و أعرف أن ما نالته من إرهاق يكفي إنسانا بظروف طبيعية فكيف و هي تحمل طفلا في أحشائها؟ و كيف لا و قد رأت من خلال عملها طرائق للموت لا يستطيع أي إنسان أن يطيقها ؟
بلحظة ما كنت مستعدا لتأنيبها و لكنني في هذه اللحظة بالذات فخور بها سعيد أن لي في قلبها مكانا ..
ندت عنها صرخة مفاجئة .
-اطلب لي سيارة الإسعاف هذه تقلصات الولادة .
حضرت سيارة الإسعاف بعويلها الذي أكرهه لتحمل سما في جوفها..لبرهة لم أدر ما أفعل فوقت جامدا كصنم إلى أن أخبرتني فاطمة أننا يجب أن نلحق بها إلى المشفى فقد غادرت سيارة الإسعاف .. متى غادرت و أين كنت أنا ؟ هل كنت غائبا عن ساعة الوعي ؟
هرولت إلى سيارة سما مع أختها و الأطفال و اتجهنا صوب المشفى.

لدى وصولنا كانت قد دخلت غرفة المخاض و ممنوع علينا الدخول لكنني ألححت على الممرضة أن تسمح لي حضور الولادة فهو شيء مهم جدا لي .. غابت قليلا و خرج لي الطبيب و أخبرني أنه ممنوع وفق اللوائح العامة للمشفى لكنه سيتجاوز عن القانون هذه المرة و يدعني أدخل .. اجتزت مرحلة التعقيم و وجدتني أمام سما .. كانت تتألم و تصرخ لدى كل تقلص ..دموعها تغطي وجهها و هي تنظر لي برجاء ..

-الولادة مبكرة و يبدو أننا سنحتاج إلى تخديرها و توليدها قيصريا ..هل توافقين يا دكتورة؟

-كنت أود أن أكون واعية حال خروج الطفلة هل سيكون خطرا علي؟

- لتجنيبك هذا الألم الكبير.

-سأتحمل .. طفلة كهذه لا يجدر بي أن أستقبلها و أنا مخدرة .

ضغطت سما على يدي وهي تعاني من تقلص آخر .. لم يدم الأمر طويلا إلى أن بدأت تتلاحق التقلصات و سما كفت عن الصراخ و صارت تستعيض عنها بالضغط أكثر على كفي و ذراعي .. كنت في كل لحظة تفيض الدموع من عيني أشيح بوجهي جانبا و كنت في سري أتلو الأدعية .

-برز الرأس .. هيا عمل جيد كوني شجاعة .. جيد .. مرة أخرى فقط و ننتهي.

صرخت الطفلة و قد حملها الطبيب من قدميها رفعت سما نفسها جزئيا .. ما أروعها .. أهلا بك في هذا العالم و غابت عن الوعي .

انشغلت الممرضات بالطفلة فيما التفت الطبيب لإنعاش سما .. لكنها لم تستجب ..حاول مرات و مرات .. بدأت أنشج ..

- سما ردي علي .. لا تتركيني أرجوك.

-هبوط حاد في سكر الدم.. قال الطبيب .. لا تخف هذه حالة طبيعية و تحدث كثيرا اطمئن سنقوم بعملنا و ستصحو بعد قليل هدىء من روعك ..

دخلت مجموعة من الأطباء إلى الغرفة على عجل و بدأوا بوضع لصاقات و توصيلات على صدرها و يديها مع أجهزة تنوح بطنين مزعج ..

-هي الآن تحت الرعاية الطبية و لا يمكنك عمل أي شيء لها سوى أن تنتظر .. هل ستخرج لترى الطفلة ؟ لقد وضعت في الغرفة المجاورة مع خالتها و إخوتها ..

خرجت من الغرفة و كنت أخشى أن تكون اللحظة الأخيرة التي أرى بها سما تتنفس ..عدت راكضا و جثوت عند سريرها لأتأكد إن كانت ما تزال تتنفس ثم أخرجني الطبيب رغما عني

في الغرفة كانت فاطمة تحمل الطفلة بين ذراعيها و تبدو كأنها كبرت أعواما كثيرة في ساعة واحدة ..

-تعال يا بني و احمل بنتك و أذن لها .. هذا ما يتوجب فعله عند ولادة الطفل ..

للحظة وجدتها تجربة فريدة من نوعها زرعت في قلبي أملا مجهول الهوية و أمانا أفتقده .. و في سري كنت أدعو الله بالعافية لسما ..

ماذا تريد أن تسميها ؟

سأنتظر حتى تصحو أمها و تشاركني التسمية .

أوصتني سما إن لم يقدر لها الصحو بعد الولادة أن تطلق عليها "ملك".

لماذا يكون هذا الهاجس عند سما ؟ هل هي مريضة من قبل؟

نعم هي مريضة و قد حذرها الطبيب من الحمل لكنها أصرت على خوض التجربة حتى النهاية ..

للتو انتقلت بي ذاكرتي إلى مرة أخبرتني فيها سما أن شعور الأمومة هو أعظم شعور في الحياة و ألم الولادة هو الألم الوحيد الذي تتمنى أن تكرر اختباره.

نزلت علي كلمات أختها كالصاعقة ..يبدو أن الحياة تمنحنا إشارات غير مكتملة و علينا أن نجمعها مع بعض لنجد المفاتيح .. الحياة غرفة

مغلقة و مفاتيحها موزعة في أركانها وعندما تفتح باب الخروج سيكون هو أيضا النهاية .

هرعت إلى باب غرفة الإنعاش و استجديت الممـرضة علها تدخلني إليها ..

كنت أبكي أو أنشج بمعنى أصح و يبدو أنها رقت لحالي فسمحت لي بالدخول بعد خضوعي للتعقيم .

كنت أراقب صدرها و هو يعلو و يهبط ووجهها الذي هرب منه كل الدم و ابيضت شفتاها .. خصلات شعرها تناثرت على الوسادة و الإبرة مغروزة في يدها موصولة إلى كيس المصل الذي يفرغ معه ثواني عمرها قطرة إثر قطرة.

يمكنك أن تتحدث إليها .. هي تسمعك الآن و ربما يكون هذا سببا في سرعة الإفاقة ...تحدث لها عن أمور سارة .. قال الطبيب هامسا.

أمسكت بيدها و بدأت أدلكها برفق و أنا أراقبها عن كثب .. تناولت مجلة اجتماعية ربما نسيتها ممرضة ما هنا و بدأت أبحث عن الفقرات المضحكة بها و أقرأها بصوت عال و أعلق عليها كما لو كانت هي التي تقرأ :

فنان ولد فنيا قبل يومين يسمي نفسه مطرب الجيل ..فنانة تقلد مشاهير فناني العالم في الأزياء التي تظهر بها ..طيب ماذا يريدون منها أن تكون مصممة أزياء أم فنانة .. انظري لهذا يا سما فنانة

تظهر شبه عارية دوما تقل أنها تقرأ قبل حفلاتها في الكتاب المقدس ... "حتعيط من الإيمان " .

عند هذه الجملة تذكرت أن سما عندما تقولها تكركر ضحكتها .. رغما عني اعتصرت الدموع قلبي .. لكنني أحسست بضغطة واهنة على يدي .. خلت أنني أتوهم .. تابعت القراءة

انظري يا سما هذا المغني الذي تحبينه جدا أطلق ألبوم أغنيات جديدة .. حالما تشفين سأحضر الالبوم لك و سنسمعه سويا أنا واثق أنه جميل.

ضغطة أخرى أكثر قوة على يدي ..سما تسمعني ..

-حبيبتي أنت تسمعين صوتي ؟ تدركين ما أقوله لك؟

أحسست بنبضها .

-لو تعلمين يا سما كم هي " ملك " جميلة ، نسخة طبق الأصل عنك لكن شعرها خفيف.. هي مع خالتها و إخوتها .. يا مشاغبة تعرفين أنها بنت و لم تخبريني ؟ ألبسوها الأوفرول الوردي و طاقية بيضاء ..

رأيت دموعا تنحدر على وجنتيها لكن ما تزال عيناها مغلقتين لكن بدأ البياض المخيف يتلاشى من وجهها..

قرعت الجرس مرات و بهستيرية .. أتت الممرضة على عجل.

-حركت يدها و نزلت من عينيها الدموع لكنها لم تفتح جفونها .

-هذا مؤشر جيد.. نتمنى أن تتجاوز هذه المرحلة..
أتى الطبيب بعد قليل و فحصها ثانية و كتب شيئا في سجلها المرضي ثم أخبرني أن أتابع الحديث إليها فهو ينشط خلايا المخ و ينعشها و أنها ربما تصحو الليلة أو غدا..
جلست مكاني و بدأت أحكي لها قصصا وأذكرها بما مر بنا و عن بنتنا ملك و مستقبلها كنت ألمح أحيانا بسمة واهنة تحاول أن تعلو شفاهها ..
قرب الفجر كنت قد استسلمت لإغفاءة عندما سمعت ..
-جلال ..
انتبهت بسرعة .
-سما !!
-لا تقلق سأكون بخير .. ثق بأني أحبك جدا .
كانت يدها الرقيقة في يدي دافئة رغم أنها أغمضت عينيها و نامت أو ربما غابت عن الوعي .. طمأنني الطبيب إلى أنها ستستعيد عافيتها إن تجاوزت الساعات القادمة بخير.. مكثت بجوارها أغفو و أصحو أراقبها لعلها تفتح عينيها من جديد..
كانت شاشة التلفاز المثبتة في الحائط تبث برامج متنوعة .. لكنها منذ ساعة لم تعد تبث إلا أخبار الحرب الدائرة و القصف و الدمار و المهجرين.

كان خرابا كبيرا ومع هذا فإن رجال المقاومة مطمئنون و يعملون بأعصاب باردة وواثقة ..

كان صوت التلفزيون موضوعا على أدنى درجاته و لكنني أخفيته بشكل كامل و بدأت أقرأ الأخبار العاجلة و الصور المتلاحقة .. كان هناك خطاب لم أستطع أن أتبين منه سوى العناوين التي تظهر على الخط الأحمر لكن ما لفت انتباهي هو عنوان عن تفجير بارجة إسرائيلية في البحر بسواعد رجال المقاومة .. رفعت الصوت قليلا بحيث أتبين الخبر و لا أزعج سما فربما توترها هذه الأخبار ..كان حقا خبرا مفرحا و مبشرا في خضم الدمار الذي تعرضت له المناطق اللبنانية بجسورها و بيوتها و أهلها و بنيتها التحتية .. عندها أدركت ما عنوه بتسمية هذه الحرب ب " الوعد الصادق" انهمرت دموعي فرحا .. للمرة الأولى أحسست أن الدماء العراقية لم تضع هدرا رغم أن الضربة لهذا الكيان الشرس المتوغل سيطرة في قوى الشر العالمية أتت من بلد صغير تتنازعه الخلافات الطائفية و لكنني أؤمن أن ثمة رجال سخرهم الله لاسترداد حق طالما استبيح ...

جلست على الكرسي و أنا أشعر بسعادة كبيرة .. كم كانت سما محقة ... لن ألومها بعد الآن في اندفاعها فهي قد تكون من "رجال الله"

.

وضعت يدي على حافة السرير لكن يدا زحفت فوقها و لمست أطراف الأصابع .. انتفضت .. حدقت فيها .. فتحت عينيها .. أزحت عن جبينها خصلات الشعر المتناثرة و قبلتها .. سما لا تدعيني أقلق عليك مرة أخرى .. أتعدينني ؟ أعدك جلال .. أعدك .

جالسا في الطائرة و في الكرسي المجاور تنام " ملك " آمنة مطمئنة .. لكم هو جميل التحديق في وجهها .. لها وجنتا أمها و أنفها و بياض بشرتها و لها جبين يشبه جبين أمي .. أصابعها الصغيرة كقطع شوكولا بيضاء...ألبستها فاطمة ثوبا أبيضَ و زهرياً صنعته لها بنفسها و عقدت لها شريطا ورديا في خصلات شعرها الكستنائي الملتف كخواتم صغيرة ...

-بابا أريد ماء .

هذه ال " بابا " ليس أكثر منها يشعرني أنني نلت أكثر مما أستحق في هذه الحياة .. ليس سواها من يشعرني أن الوطن ليس فقط رمالا و جبالا و بيوتا و إنما هو قلب صغير يخفق لك و تخفق له .. هو لك بمقدار ما أنت له .. ليس ثمة مثلها من يهبني صمودا لكي لا أترك الوطن في براثن من لا يعي أن حروف اسمه مقدسة لا ينبغي أن يحملها أي إنسان .

أحضرت لها المضيفة كوبا من الماء شربته و عاودت نومها .
شرعت الطائرة بالهبوط التدريجي ، كنت في كل ثانية أطمئن أن رباط مقعدها محكم .. يدخلني هذا في نوع من وسواس قهري كما كانت سما تحذرني لكنني مستعد لكل التبعات كرمى لعيون هذا الملاك النائم .
مطار بغداد ثانية بإحساس آخر ..أعانق به رائحة الوطن..
ومستعد لأكون هنا لا أرى إلا جمال سواده و نخيله و نهره و جسوره و أوابده و تاريخه و حضارته .. لن أتغاضى عن القبح لكنني ما أمكنني سأضيء شمعة لا ألعن الظلام و لكني أبدده .. ملك شمعتي!!
أعبر مع سما بهو القادمين في المطار باتجاه البوابة الرئيسية و بيننا طفلة مشاغبة عمرها عامين بشريط وردي لّماع يتموج في خصلات شعرها الكستنائي .

تمت بعون الله في 2011/9/22/ دمشق
ريم بدر الدين بزال